من المسؤول
عَن تخلفِ المسلِمين

تأليف
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، ياربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك. سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

وأفضل الصلاة والسلام على خاتم المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم قني فتنة النفس والهوى، وارزقني نعمة الاخلاص لوجهك الكريم، وألهمني السداد في الفكر والحكمة في القول. إنك ولي كل توفيق.

كلمة قبل المقدمّة

يتناول هذا البحث واقعاً يتمثل بشكل عام في الرقعة الواسعة التي يمتد عليها وجود الأمة العربية التي هي جزء هام من الأمة الإسلامية.فلا جرم أني لا أقصد في شيء مما أذكره مجتمعاً خاصاً، أو بلدة، أو قطراً بعينه.

وإني لأرجو أن لا تخونني الموضوعية المطلقة فيما أقول. كما أرجو من القارئ الكريم أن يتسع صدره لما أقول بدافع من هذه الموضوعية ذاتها.

وإنما شفيعنا في كل نقد بناء، بحرقنا جميعاً لمصلحة هذه الأمة وبعث مجدها من جديد.

المقدّمة

قرأت مقالاً في مجلة سيارة، يحلل فيه كاتبه أسباب التخلف عند المسلمين، ويتلمس فيه أهم المعوّقات التي أخرتهم في سباق الانتاج عن اللحاق بغيرهم.

لقد كان من أهم أسباب ذلك، في نظر كاتب المقال، تلك الآثار الباقية من الدين وغيبياته عندهم، وتلك العقيدة التي تنسب كل شيء إلى الخالق.

والحقيقة أن ربط التخلف بالدين، قد غدا عند طائفة من الكتاب العرب. حركة آلية في سير تفكيرهم، لا تكاد تختلف عن آلية تصور ارتباط الطعام بقرع الجرس، في التجربة التي أجراها بافلوف لإثبات نظريته المشهورة عن رد الفعل الشرطي.

فمهما انحسر سلطان الدين (وهو الإسلام في هذا المقام) عن مجتمعاتنا العربية اليوم، ومهما شرد الناس عن سبيله وقيوده، ومهما ابتعد سلطان هذا الدين عنهم وعاد محصوراً في مخزن التاريخ، منزوياً في مَرِبه الحضاري . فإن هؤلاء الكاتبين يظلون يلصقون به جريرة تخلفهم كلما سئلوا عن أسبابه أو كلما تظاهروا بالنهوض لمعالجته والتغلب عليه!..

والتخلف، كلمة، تشمل كل مظاهر الضعف أو الجهل أو الفقر في حياة الأمة. فهي إذاً تنحط على تفرق المسلمين وتدابرهم، وعلى استلاب اليهود وغيرهم لأراضيهم، وعلى جمود الحركة العلمية في حياتهم، وعلى قعودهم عن تسخير ما في الأرض لمعاشهم.

فيزعم هؤلاء الباحثون إذاً، أن من أهم ما يمنع وحدة العرب اليوم، ويصدهم عن ردع اليهود وطردهم، ويعرقل عليهم الانطلاق نحو آفاق العلم والمعرفة، ويقعدهم عن السبق الاقتصادي وتوفير الانتاج، هذه البقية من سلطان الاسلام وعقيدته في نفوس المسلمين!..

***

ويعلم هؤلاء الكاتبون، كما يعلم غيرهم، أن هذه الأمة كانت فيما مضى خاضعة خضوعاً تاماً لسلطان الإسلام؛ فحكمها كان منبثقاً عن قانونه، ومجتمعها كان قائماً على نظامه، وأخلاقها كانت مستلهمة من روحه؛ وكان ذلك . فيما أجمع أليه الباحثون . سرَّ اتحادها بعد تفرق، ومصدر قوتها بعد ضعف، ومنبع غناها بعد فقر فكيف ينعس الأمر ، ويصبح ما كان سبباً للوحدة والقوة والتقدم بالأمس، سبباً للفرقة والضعف والتخلف اليوم؟!..

ومع ذلك، فلو أن السواد الأعظم ممن نسميهم اليوم مسلمين، لا يزالون يحتكمون إلى الإسلام في قانونه ونظامه وأخلاقه، لأقررنا بالتناقض تحت سلطان الواقع، ولقلنا . والعجب يفيض في صدورنا . :إن الإسلام على ما بدو ذو أثرين متناقضين!!..

ولكن من نسميهم اليوم مسلمين، بعيدون عن الإسلام متنكرون له، بمقدار ما كان أسلافهم قريبين منه متعلقين به.

فأين هو مكان العتب على دين تراجع سلطانه عن الحكم ونظامه، وتلص ظله عن المجتمع وأخلاقه، ولم يعد أكثر من شعارات ترفع في المساجد، وكلمات تردد في المحافل.

ولئن كانت ثمة بقية قليلة من المسلمين الذين لا يزالون على وفاء مع إسلامهم، فإنهم على كل حال يقفون . طوعاً أو كرهاً . بعيداً عن طري المتقدمين والمتوثبين إلى الإصلاح.

لم يقف واحد منهم يوماً ما عثرة في سبيل وحدته، ولم يصدَّ عن طريق قوة، ولا سعى إلى إيقاف مصنع.

لم يتقد واحد منهم إلى قطعان الكسالى، سمار النوادي، ونوّام الضحى، ليغزيهم بمزيد من الكسل والعبث، وليقول لهم: إياكم أن تبرحوا نواديكم التي تعابثون فيها الحياة، وأن تسلكوا سبيل غيركم إلى علم يرفع لكم شأناً أو يثمّر لكم مصنعاً، أو ينهضكم إلى ما عليه الآخرون من التقدم والرخاء!..

نعم... ولم يعمد أي واحد منهم إلى جيش هذا الجنس البشري الثالث، الذي لم يعد يفهم من الدنيا إلاَّ على أنها ليلة حمراء وفتاة حسناء، ولم يعد يذكر لأمته تاريخاً ولا يؤرقه عليها مصير ولا يشاركها في ألم . ليقول لأحدهم: إستمرَّ كما أنت، نائماً في أرجوحة الأحلام، ولا اوقظتك غيرة على وطن أو حرقة على إصلاح. فإنما أنت كما قال الشاعر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها***واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

أجل.. ولم يدن واحد منهم إلى أيّ فرد من هؤلاء الذين يتبرمون بالتخلف ومظاهره، ويطمحون إلى التقدم وأسبابه، ويلومون في سبيل ذلك الدين والمتدينين والمؤمنين بخالقية الخالق، ليغلّله في الأصفاد، وليشده إلى قاع التخلف حيث الفقر والجوع والجهل وقلة الانتاج!..

إنهم جميعاً يتحركون كما يشاؤون، ويتجهون إلى حيث يريدون.

الميدان ميدانهم، والساحة فارغة أمامهم، والعدةّ . أياً كان . مكشوف تحت أبصارهم.

ففيم كل هذه الضجة الراكدة في أرضها، والنزق الذي لا يتحرك من مكانه، والصراخ المتلاحق بدون موجب أتركني عليهم .. أتركني عليهم !!..

لو كان بهذه البقية القليلة من المسلمين الأوفياء لدينهم، بقية طاقة للوقوف عقبة في وجه شيء، لوقفوا عقبة في وجه هذا الكسل الماجن الذي تحتضنه الملاهي إلى لمعة الصباح، ثم يستقبله النوم الثقيل إلى وهج الضحى. بل لوقفوا عقبة في طريق هذه الاحلام الداعرة التي التفت على كينونة جمهرة من شباب هذه الأمة، نفسية وعقلاً وتفكيراً!.. بل لوقفوا عقبة في طريق نفاق يصطنع الحرقة على الأمة والوطن والمصير ظاهراً ، وينصرف الى اقتطاف ثمار هذه (الحرقة) مكاسب وأرباحاً، باطناً.

ولكن هذه البقية المسلمة ليس لها من الأمر شيء.

ليس لها من الأمر شيء في إصلاح هذا الفساد، أفيكون لها الأمر كله في إفساد ذلك الصلاح؟!...

***

إذاً فما هي حقيقة هذه التهمة؟.

حقيتها أن الخائب عندما يغص بالاعتراف بخيبته، يشتهي أن يلحق بغيره التهمة، وأن يستعيض عن خذلانه بجعجعة فارغة: أتركني عليهم!...

وإلاّ فما من عاقل ذي نصيب من الثقافة والفهم، إلاّ ويعلم أنَّ ايّ أمة من الأمم الناهضة أو المتقدمة، لم تكلفها نهضتها أن تنبذ دينها أو تاريخها أو شيئاً من تقاليدها، أياً كان مستوى ذلك كله.

لقد نهضت اليابان نهضتها المعروفة، وأخذت تنافس كبرى الدول الأوربية، في شتى ميادين الصناعة والعلم؛ فهل كلفها ذلك أن تتجرد عن شيء من طقوسها الدينية أو ما تؤمن به من مقدساتها التاريخية، أو أن تهجر شيئاً من معابدها أو تجحد شيئاً من غيبياتها؟***

يقول أحد الصحفيين الأوربيين في حديث له عن اليابان ونهضتها: (إنَّ ظفر اليابان بالصين لم يثبت علوّ الأفكار والمبادئ العلمية التي أخذتها اليابان عن الغرب وكفى، بل أثبت أمراً آخر، وهو أن شعباً آسيوياً بمجرد إرادته وعزيمته عرف أن يختار ما رآه الأصلح له من مدينة الغرب، مع الاحتفاظ باستقلاله وقوميته وعقليته وآدابه وثقافته).

ولقد تبوأت أوربا مركزها الحضاري الجديد في العالم، دون ان يحملها ذلك على أن تتنكر لمسيحيتها أو أن تتساهل في شيء من تقاليدها وموروثاتها الدينية، أو أن تجحد بشيء من غيبيات تلك التقاليد والموروثات. بل إن بريطانيا . وقد كانت ولا تزال عنواناً من أبرز عناوين النهضة الأوربية . لا تفخر بشيء من علومها وصناعاتها، كما تفخر بعتيق عاداتها وتقاليدها، وبالمحافظة على موروثاتها!..

واليهود الذين تنبسط أيديهم على كثير من مقدساتنا وأوطاننا، لا يجهل أدنى موثق من الناس أن جميع نشاطاتهم الفكرية والعلمية والصناعية وغيرها، إنما تنمو عندهم في تربة الدين وتحت ظلاله[1] أفتكون هذه الأديان التقليدية عوناً عند أربابها على التقدم الحضاري وكثرة الانتاج، ثم يكون الإسلام (وهو الدين الذي ينهض وجوده على دعائم العلم وينبذ كل أسطورة وتقليد) وهو وحده سبباً، من بين الأديان كلها، والتخلف، وعثرة في طريق التقدم، ومعوقاً عن الانتاج؟

هل في العقلاء الأحرار من يستعدُّ أن يبيع عقله ليعتنق هذا المنطق المعكوس؟!...

***

أنا أعلم أن في أرباب هذا الزعم العجيب من يبادرني قائلاً:

وهل أوقف عجلة التقدم الاقتصادي عندنا غير الإسلام، عندما حرم الربا؟. وهل أوقف عجلة التقدم العلمي والاجتماعي والاقتصادي معاً غير الإسلام، عندما فرض على المرأى الحجاب وحرم عليها الاختلاط؟.

واقول في الجواب على هذا الكلام الذي غدا بالياً من كثرة تكراره:

أولاً. ها أنتم أولاء تبيحون الربا، وتفسحون له في حياتكم الاقتصادية سبيلاً عريضة تغلغل منها إلى سائر وجوه المعاملات؛ ومع ذلك فإنه لم يساعدكم في تحقيق أي تقدم تحملون به ولا في تخليصكم من أي تخلُّف تضجون منه!..

فهل حاولتم أن تجربوا في مقابل ذلك ما ينادي به الإسلام من ضرورة التنزه عن الربا، وسرتم في أمالكم ومعاملاتكم الاقتصادية ذاتها . ولو عاماً واحداً . ضمن هذه التجربة، ثم لمستم النتيجة السيئة ليصح لكم أن تقولوا: لقد جربنا نصيحة الإسلام فوقعنا في شر من التخلف الذي كنا نعانيه؟[2] بل، أنسيتم تجربة بنوك الادخار، يوم قام بها ذلك العالم الاقتصادي المنصف المتحرق حقاً على مصلحة

---

[1] وهذا الذي تراه من أهمية الدين في حياة الشعوب والامم اليوم تراه من خلال النظر إلى التاريخ الغابر أيضاً دون أي تغاير أو فرق. فما من حضارة سادت في عصر ما، إلا وكان الدين توأماً لها، بقطع النظر عن نوع الدين وقيمته في ميزان الحقيقة والعلم. فالهند والصين أثينا ومصر والشام والعراق واليمن، كلها مهاداً لحضارات قديمة سادت، وتركت آثاراً لها باقية إلى اليوم. وما انفصلت هذه الحضارات على اختلافها، طوال عمر وجودها، عن أديان كانت لها القوة والقيادة والحكم، دون أن تضيق الطريق أمام تلك الحضارات أن تسير إلى آخر مدى تبغي السير إليه آنذالك.

ولا يخفى أن هذه الحقيقة التي تراها من حولك اليوم. ومن خلال النظر إلى التاريخ الماضي، تبدد ذلك الوهم العجيب القائل بأن الدين كان ملجأ للشعوب البدائية التي لم يكن لها من العلم ما تفهم به أسرار الكون والطبيعة ، فكان لها من الاحتماء بالمجهول والمغيبات ما يهدئ من روعها وحيرتها في تفسير الطبيعة والحياة. حتى إذا لم تعد من حاجة إلى ذلك الالتجاء إلى المغيبات.

ذلك لأن كل هذه المشاهدات التي تراها من حولك اليوم على صعيد الواقع أو في صفحات التاريخ الغابر تقرر عكس هذا الوهم تماماً والتفسير الوحيد لهذه الظاهرة، هو أن الدين غريزة فطرية عند الانسان أياً كان وفي أي عصر عاش. إلا أن هذه الفطرة إذا غذيت بالعلم والتحرر الفكري، هدي صاحبها إلى معرفة الدين الحق..أما إذا تركت دون أن يشرق فيها ضياء العلم، فإنها قد تضل بصاحبها، وتزج به في سبل الغواية وتخضعه للأوهام والأساطير. مثال ذلك فطرة البحث عن الغذاء إنما إذا غذيت بالعلم، هدي الإنسان إلى ما يفيده من الطعام، أما إذا هاجت في كيانه بعيداً عن نبراس النظر والعلم، فإن الشأن فيها أن تحمل صاحبها على أن يأكل حتى من أوراق الشجر والبشيع من الطعام.

[2] نحن نطرح هذا السؤال مع اعتقادنا عن الربا ليس موجباً آلياً للتخلص من الآفات الاقتصادية، حتى يستوي في الابتعاد عنه من يفعل ذلك بدافع من محض التجربة الاقتصادية ومن يفعله بدافع من الإيمان بالله عز وجل ورغبة الانصياع لحكمه. وإنما هو .كسائر أحكام الله تعالى . موجب للسعادة والتقدم إذا انساق إليه الإنسان بدافع من الإيمان بالله وحب الاعتصام بشرعه، إذ هو الذي يخلق السعادة وأسبابها. وهو الذي يخلق نقيض ذلك عندما يشاء. ولكنا مع ذلك نطرح هذا السؤال إلزاماً للحجة. وكشفاً لبراءة الإسلام عما يصمونه به، فهم يتهمونه بأنه بسبب التخلف مع أنهم لم يطبقوا شيئاً من أحكامه حتى بدافع من حب التجربة.

وطنه وأمته، والمتألم حقاً من التخلف وأسبابه، في منطقة ميت غمر بمصر؟.. بنوك قائمة على أحدث وجوه النشاطات الاقتصادية، طاهرة مطهرة من رجس الفائدة والربا، تحقق لها من النجاح الرائع في أقل من سنتين ما استقطب ثقة الأمة وحرك دولاباً اقتصادياً خطيراً خلَّف كثيراً من البنوك المحيطة بها، إلى الوراء. ولقد استيقظ الناس، إذ ذاك، من هذا الفتح الكبير على آمال يرونها مرسومة أمامهم في منهاج علمي سليم، يحقق لأول مرة . بعد عدة قرون من الهوان . اكبر حلم يراود هذه الأمة المسلمة، فلقد رأوا بأعينهم سبيل التخلص من تبعية الاسترليني والدولار، ثم الوصول من ورائه إلى حقيقة الاستقلال الاقتصادي الذي طالما هبت به تجار المناصب والأهواء..إستقلال يحميه الدينار الإسلامي من وراء تطبيق منهاج يستهدف بعث اقتصاد مزدهر قائم على أسلم دعائم العلم، خاضع لقانون الله عز وجل، منسجم مع تطور الحياة، متحرر من سجن اليهودية الكبير[٣][3].

فلماذا اوقف هذا المشروع ثم اختنق؟.

لماذا.. على الرغم من أنه انطلق منذ يوم وجوده سائراً فوق أعلى ذروة من ذرى النجاح؟.

سلوا ذاك الذي خنقه بعد نجاحه (وهو حي يرزق) لماذا خنقه؟.

لماذا أصرَّ إصراره العجيب على ألاَّ يترك المشروع يواصل سيره الناجح، بل الناجح جداً، إلا إذا خضع لقانون الفائدة الربوية؟!..

لقد سلكتم إلى التقدم والازدهار الاقتصادي كل سبيل أعجبكم من سبل الغرب أو الشرق، فما انتهى بكم ذلك إلاَ إلى مزيد من التخلف والشتات.

وسلك صاحب هذا المشروع إلى الغاية نفسها سبيل الخالق الحكيم جلّ جلاله، فحقق العجيب من ألوان النجاح خلال عامين فقط (وسجلات الحساب والأرباح لا تزال محفوظة) ثم جاء منكم من أسرع هائجاً وأغلق عليه فم الطريق.. فمن الذي يكرس إذاً أسباب التخلف ويقف في وجه التقدم؟.

ثانياً . من هذا الذي زعم لكم أن الحجاب الذي فرضه الله قانوناً على المرأة المسلمة إنما يعني أثقالاً من الجمود تحت ككل الماضي، وانحباساً عن المجتمع في كهوف الجهالة أو العزلة؟ .. وإلى أي دليل أو شبهة دليل استندتم في الربط بين حشمة المرأة في الحدود التي يأمر بها الإسلام، ومظاهر الجهل والسخف والتخلف التي يندد بها الإسلام؟!.

بل أقول: من أين لكم هذا التلازم المختلق بين أن تبرز المرأة عارية الجسم والمفاتن، وأن تنطلق في دنيا العلم والثقافة والتصنيع؟!..

ها هي ذي معظم الشوارع والأسواق، قد فاض كما تحبون بهذه المظاهر صنوفاً وألواناً، فأي قيود من قيود التخلف حطمتموه، وأي كسب من اكساب التقدم حققتموه؟.

أم لعل ثمة من قد يقول لنا من فوق سور المنطق والعقل أن ظهور المرأة بهذا الشكل في الشوارع والدوائر والاندية، هو التقدم المطلوب بعينه، فهو غاية بذاتها وليس وسيلة إلى غيرها؟.

ولا بدَّ أن نقول إذاً: فهنؤوا بأنكم تقفون إذاً على خط واحد في هذا كله مع تلك الدول المتقدمة الكبرى.

ذلك لأن معظم هذه الظواهر التي تعدونها ثمرة للتقدم، من أجسام بادية، وأندية عامرة، وأبنية باسقة، تتمتعون منها بقاسم مشترك مع تلك الدول الكبرى. بل ربما كنتم تقفون معها في ذلك على قدم المساواة.. بل ربما تجاوزتموها في بعض تلك الظواهر..

ففيم الحديث إذاً، بعد هذا كله عن التخلف، وهو وهم لا وجود له؟.. وفيم التأفف عما يسمى بالجهل والفقر والضعف، وإن لديكم من تلك المظاهر والدلائل المزعومة ما يكذب القول بوجود شيء من هذه الأمور كلها؟..

أما إذا كان لا بد من الرجوع إلى المنطق والفكر الموضوعي، فلنعد إلى متابعة حديثنا لنقول: سلوا الفتيات اللاتي التزمن حشمة الإسلام وتشرفن بحجاب القرآن: هل منعهن ذلك من متابعة درس في كتاب. أو من المواظبة على حضور في الجامعة، أو هل صدَّهن ذلك

---

[3]٣ من المعلوم فيما يتعلق بتاريخ نشأة البنوك. وعمليات الفوائد، ان الأغنياء كانوا في العصور الوسطى يحرصون على صيانة ذهبهم من السرقة والضياع. ويعهدون بها إلى محترفي صياغة الذهب وصيارفة النقود لقاء سندات يأخذونها منهم. وكان معظم هؤلاء الصيارفة والمحترفين يهوداً. وسرعان ما اكتشفوا أن الذهب المودع في خزائنهم يبقى جاثماً فيها مدداً طويلة..فاخذوا يستغلونها بالاقراض بالرباب،بالفائدة التي يحججونها.. وهكذا تضخمت ثروات اليهود التي لم تكن في أصلها إلا مال المودعين ولما قامت الثورة الصناعية ي أوربا، لجأ أصحاب هذه الصناعات إلى هؤلاء اليهود يستقرضون منهم قروضاً انتاجية كبيرة فتطور نشاط هؤلاء الصيارفة.. وامتد شريان نشاطهم بشكل أخطبوطي هيمن على معظم النشاطات المالية ثم السياسية في أوربا أولاً. ثم في معظم أنحاء العالم ثانيا.

عن القيام بأي عمل انساني شريف، تستهدف منه الغاية السليمة ولا يستغل من أجل خدعة أو إثارة فتنة؟..ثم سلوهنَّ: هل أثقلن الحجاب عن ممارسة أي نشاط اجتماعي يراد من ورائه إحقاق حق أو إبطال باطل أو معونة ضعيف؟.

إننا نعلم .كما يعلم كل بصير منصف . أن فتياتنا المتحجبات هي الصفو الأولى في النجاح وقوة الدراية وسموّ الوعي، في أي فرع من فروع الدراسة والعلم.

وإننا نعلم .كما يعلم كل بصير منصف . أن في فتياتنا المتحجبات من تمارس النشاط الاجتماعي في سبيل أمتها صنوفاً وألواناً، بدافع من الصدق والإخلاص، وعلى مستوى من الاهتمام لا تبلغه واحدة من هؤلاء اللاتي تنفق كل منهن أغلى أيام حياتها على النظر في عطفيها وتعهّد زينتها وأصباغها.

نعم.. لقد امتنعت هذه المرأة المسلمة من أن تعرض جسمها للرجل الأجنبي حتى لو كان طبيباً في بعض الأحيان، ولكنها لم تغلق الباب بذلك على نفسها لتعرّض جسمها للموت وأسبابه، وإنما انطلقت تدرس الطب كما يدرسه الرجل، وعادت فأخرجت لأخواتها مستشفيات تنهض على أحدث وسائل العلاج والرعاية، تشرف عليها نساء مسلمات يحملن أعلى درجات العلم والاختصاص.

أجل.. ولقد امتنعت المرأة المسلمة عن أن تحتك بالرجل الأجنبي لتستعين به فيما قد اختص به من خبرة في الميكانيك وقيادة للسيارة ونحو ذلك مما قد يحوجها إليه نشاطها وعملها الإنساني. ولكنها لم ترتد بذلك على أعقابها، ولم تطو شيئاً من منهاج نشاطها، بل درست هي الأخرى الميكانيك وتعلمت قيادة السيارة وفن صيانتها، ثم عادت وقد وحققت مبدأ الاكتفاء الذاتي في المدارس التي ترعاها والمشافي التي تديرها ومختلف النشاطات الإنسانية التي تقوم بها.

وهكذا اجسد تكامل الدين والدنيا (وهذا هو الإسلام) في مظهر امرأة مسلمة متحجبة تقود سيارة الأطفال، وتسعف جرحى الحرب، وتطبب المرضى، وتعلم الجهال، دون ان تتعثر في الطريق إلى شيء من ذلك بحجابها المحتشم أو دينها القويم أو خوفها من الفاطر الحكيم[٤][4].

هذا كله، على حين لم يتجسد النشاط النسائي . في غالب الأحيان . عند الأخريات الإخريات إلا في عرض مزيد من المفاتن، وإتقان مزيد من قواعد الأتيكيت، ومزيد من في الجلوس في الصالونات.. تلك هي الفتاة الاجتماعية الصالحة، كما يروق لبعض السالمين من التخلف، العاكفين، في هم منقطعه النظير، على معالجته، ودراسة أسبابه.

***

أطلت ذيل هذه المقدمة. وإنما أردت أن أجعلها مدخلاً إلى أصل الموضوع، وهو البحث في سر تخلف المسلمين، وكشف اللثام عن المسؤول أمام هذا التخلف.

وسأعالج هذا الموضوع من خلال نقطتين أساسيتين:

النقطة الاولى: الغيبة والغيبيون. ما معنى هاتين الكلمتين؟.. ومتى تكون عنوان تخلف وسبيل الاستسلام للجهل، ومتى تكون جزءاً من منهج البحث والمعرفة.

ومن هم الغيبيون حقاً، وإلى أي نهاية تسير بهم غيبيتهم التي يتلبسون بها.

النقطة الثانية: ما هي حقيقة أسباب التخلف بسائر أنواعه وأشكاله، كما هو واقع وماثل للعيان، لا كما تشتهيه نفوس اصحاب الأماني. وما هو سبيل التخلص منها؟

الغَيبيَّة وَ الغَيبيّون

كلمة (الغيبة) و (الغيبيون) و (اليقين بالغيب) هي ينبوع الأسلوب الجديد في نقد الإسلام ونعته بأنه سبب التخلف.

والكلمة تعني عند هؤلاء الناقدين أن الإسلام لمّا كان يحمل أصحابه على اليقين بأمور غيبية، حملهم بذلك على القفز من فوق سور العلم، وعدم التزام شيء من قواعده واحكامه، وهو دليل في الوقت ذاته على بطلان الإسلام من أساسه.

---

[٤][4] ليس هذا خيالاً نتمناه، بل هو واقع معروف نعتز به.

ولكني لست ادري ما الذي يفهمه هؤلاء من معنى الغيب أو الغيبيات!***

فإن كانوا يفهمون منها أنها تعني كل ما قد غاب عن قناعة العقول وموازينها العلمية، فأن الإسلام، حقاً، ما ينبغي أن يكون فيه شيء من ذلك، إذ الأمر الذي لا سبيل للعقل وموازينه العلمية لليقين به، لا يمكن تبينه إلا عن طريق القسر والإرغام، وحسبك من الأمر الذي يأباه العقل الا يجد الإنسان من سبيل لقبوله إلا تحت سلطان القسر والإكراه.

ولكن الإسلام لا ينطوي على شيء من هذا القبيل.

وهذا ما أريد بيانه بدليل من البرهان العلمي في هذا البحث.

أما إن كانوا يفهمون من الكلمة أنها تعني الأمور الغائبة عن الأبصار والحواس. ويفهمون أن كل ما كان كذلك فهو مفصول عن دائرة العلم، مقطوع النسب إليه، فهو خطأ شنيع لا يأتي إلا من وراء غيبوبة شنيعة عن معرفة حقيقة العلم وضوابطه وأحكامه. وهيهات أن يكون في شيء من غيبيات الإسلام بهذا المعنى أي دليل على أنه يناقض العلم أو يقفز من فوق سور المنطق ومدارك العقول.

إذ من المسلم به أنه ليس كل مالا يراه عيناك ولا يلمسه حسك محكوماً عليه بالانعدام. وما قال عالم من الناس إن وسيلة العلم بالشيء محصورة في طريق العين أو الأذى أو الذوق أو الشم أو اللمس. وإلا لما قال العلماء أنفسهم إن المعلومات تنقسم إلى معلومات حسية وغير حسية.

ولو كان كل ما غاب عن حسك وهماً باطلاً يجافي العلم ويناقض مكانة العقل، إذاً لكانت سائر دراساتنا التاريخية وهماً باطلاً، ولكانت سائر أحكامنا على المستقبل وجميع توقعاتنا الغيبية فيه خرافة يتنزه عنها العقل!.. وإذاً لا نبتر فكر الإنسان عن النظر في الماضي وعن التأمل في المستقبل، ولا نحصر عمله في استعراض الصور والأحداث التي تمر تحت حسّه، لا يسأل عقله من أين جاءت ولا يستهديه إلى أين تسير.

فهل من عاقل في الدنيا يتعامل مع الحياة على هذا الأساس؟...

وهل هذا إلا الجنون الصافي، في أتم خصائصه ومزاياه؟...

***

وبلاؤنا بصنف من الناس اليوم، أنهم يتحمسون في استعمال شعارات وعبارات غامضة، دون أن يتبينوا أي حجم لمعانيها أو يقفوا على أي ضابط لمدلولاتها.. ثم يمتطون صهوة هذه الكلمات، لينطلقوا في حرب كلامية بها، على غير بينة ولا هدى!..

يحاربون الإسلام بكلمة (العلم) أو (البحث العلمي) دون أن يضعوا أنفسهم أمام أي مدلول علمي لهذه الكلمة.. وإنما معناها عندهم أن يبتعد الباحث عما يقرره الإسلام، ثم يتجه في بحثه عن الحقيقة إلى أي جهة شاء، على ان يصبغ حديثه بكلمات العلم وأسلوبه، ويشقق في ذلك الآراء والاحتمالات!.. وقد يسلك هؤلاء (العلميون) بعد ذلك طرائق قدداً، وينتهون إلى آراء وأفكار متناقضة. ومع ذلك فإن العملية كلها بنتائجها المتضاربة المتناقضة تعتبر عندهم علماً، وتسمى السبل المختلفة إلى هذه النتائج المختلفة بحوثاً علمية او مناهج علمية.

فداروين، ولامارك ، وفرويد، وماركس، وديكارت، علماء في بحوثهم، وفيما انتهوا إليه من نظريات وأحكام!. إذ يدخل جميعها في اعتبارهم تحت قضايا العلم، ومهما جاءت مختلفة عن بعضها، ومهما ظهر التناقض فيما بينها، فإن كل ذلك لا يعريها عن صفة العلم وقدسيّته بنظرهم!..

ولكن ما هو(العلم)؟..

وما هو المنهج السليم إليه؟..

وكيف تكون جملة أفكار متناقضة علماً؟!..

هذا ما لا يجب عليه، ولا يعلمه (العلماء) الذين دون أن يضعوا للمسلمين أي ميزان ينضبط به معنى التطور الذي يريدون، ومعنى الجمود الذي يكرهون، ودون أن يلزموا أنفسهم بأي منهج علمي، يفصل لنا التطور عن التهور، ويميز لنا الثبات عن الجمود!..

ثم إنهم يحاربون الإسلام بتهمة (الغيبية). ويجسدون هذه الكلمة غرضاً يعلقونه على الحقيقة الاسلامية التي تتضمن مجموعة عقائد الإسلام وأحكامه وآدابه، ثم يصوبون سهامهم إليها عن طريقه ويحاربونه في مظهره ولكن ماذا تعني (الغيبية)؟..

أهي غيبوبة العقل عن الفهم، أم غيبوبة العلم عن الحكم. أم هي غيبوبة العين عن الرؤية أو الحس عن اللمس، أم تراها غيبوبة المعلوم في تلافي الماضي..أم غيبوبة الحكم في ضمير المستقبل؟!..

ترى أي هذه الغيبيات تعتبر امتهاناً للعلم وارتكاساً للفهم؟.. أم هل أن جميعها محكوم عليه بالخروج عن قانون العلم وأحكامه؟.. وكيف تم هذا الخروج؟..

وبأي قانون ومنطق؟.. بل أين هو الخط المنهجي الذي يفصل بين العلم الذي هو العلم، والظن الذي هو الظن، والشك الذي يسمى الجهل، أي الجهل البسيط[٥] ؟.

أليس من أخص واجبات هؤلاء الذين يتباهون بالعلم، أن يستعينوا بالعلم نفسه للإجابة على هذه الأسئلة، وأن لا يكونوا غيبيين في إغماض اعينهم عنها، ثم أن لا يكونوا عشوائيين في اقتحام الأمر على غير بصيرة ولا هدى.

***

إنني أتجه الآن إلى واحد من كبار هؤلاء الذين ينعتون الإسلام (بالغيبية) والمسلمين (بالغيبيين) من حيث ينزه نفسه من أوضارها وأوضار من يسميهم بالغيبيين، وليكن أي فرد منهم، لأسأله قائلاً:

- إنك تستمع في الصباح الباكر إلى نشرة الأرصاد الجوية، وهي تخبر بأن البلاد ستتعرض لمنخفض جوي أثناء النهار، فتخرج من بيتك وقد اخذت للبرد عدّته وارتديت له لباسها! .. فلماذا تستقبل شيئاً غير موجود، وتؤمن بوهم غير منظور، وتستيقن أمراً لم يولد من غيبه بعد؟!...
- وتمسك بيدك مجلة اجنبية، فتقرأ في إحدى صفحاتها خبراً عن جهاز عجيب تمَّ اختراعه أخيراً، تلتقط به الذبذبات الصوتية المنطلقة إلى الفضاء منذ عشرات السنين، لتعاد من جديد إلى الأسماع كما كانت يوم انطلاقها!.. فكيف صح لك في قانون العلم الذي تعتز به أن تسلّم بما لم تره عيناك، وأن تؤمن بما لا علم لك منه بكيفية ولا تحليل ولا تركيب؟.. ثم كيف صح لك أن تقفز إليه فوق قنطرة من احتمالات الكذب في الأخبار، واللبس في الموضوع، والنقص في الشروط؟...
- ويشير الطبيب الذي تثق بطبعه وتؤمن بصده، إلى الكأس التي تدنيها من فمك، فيحذرك من شربها، لأن فيها شيئاً إن دخل جوفك هددك في حياتك؛ فتقصي الكأس عن فمك، وترفع عنها يدك، وتستيقن أن فيها الهلاك!.. فكيف آمنت بما لم يقع بعد، وتصورت ما لم يولد من غيبه المكنون، علاوة على أنك قد لا تعلم شيئاً عن طبيعة ما في الكأس، ولم تطلع على شيء مما قد عرفه أو قدّره الطبيب؟..

كيف تنعت المسلمين بالغيبيين، وترميهم بالتجافي عن منهج العلم من أجل تصديقهم بما يقوله خالق الكون مخبراً ومقرراً، وأنت لا تكاد تتحرر عن سلطان هذه الغيبيات نفسها يوماً واحداً في حياتك؟!..

تأمل في سعيك، وأعمالك، وأفكارك، تجد أنها ليست إلا مخازن لهذا الأمثلة التي سقتها لك وعشرات من أمثالها، تتكرر في حياتك كل يوم.

ومع هذا، فأنا لا أعيرك في غيبياتك هذه واستغرقك فيها، كما تعير أنت المسلمين بنظيرها. ولا أستعجل فأجعلها من حياتك الفكرية عنوان جهل ودليل غفلة، كما تستعجل أنت فتجعلها عند المسلمين مصدراً لذلك. ولكني أسأل فقط:

ما هو المنهج العلمي . وأنت رجل علم . إلى يقينك بهذه الأمور الغيبية التي ضربت لك المثل ببعضها؟!...

لو كنت رجل علم حقاً، لأدركت أن الأمر في ذلك لابدَّ أن يكون قائماً على منهج علمي ذي شروط وقيود وضوابط.. ولو كلفت عقلك بعض الجهد في معرفة هذا المنهج، إذاً لما أغمضت عينيك ورحت تصم إسلام المسلمين بالغيبية التي لا تعلم شيئاً عن مدلولها، وحدود كل من الحق والباطل بها.

---

[٥] من المعلوم أن الجهل ينقسم إلى قسمين: جهل بسيط وهو الشك في الأمر أو عدم تصور أي شيء عنه. وجهل مركب، وهو تصور أو تصديق على خلاف الواقع.

والخطيئة الأولى، وهي أهم الأخطاء وأخطرها في هذا الصدد، أنك لم تدرك بعد معنى (العلم)!.. فأنت تظن، ككثير من أمثالك، أن العلم ليس إلا ثمرة التجارب التي يجريها علماء الطبيعة على الظواهر المرئية أمامهم، فلا وجود لحقيقة العلم وراء ذلك!..

والواقع المتفق عليه عند جميع العلماء أن العلم إنما هو: إدراك الشيء مطابقاً لما هو عليه في الواقع بالدليل.

فإذا تم هذا الإدراك، فهو العلم بذاته، بقطع النظر عن الدليل أو الطريقة التي تم بها الإدراك. وليست طريقة التجربة على الظواهر المحسوسة إلا واحدة من وسائل كثيرة مختلفة.

وإنما تختلف طرائق الإدراك، حسب اختلاف الحقيقة العلمية التي يراد إدراكها والكشف عنها:

فالحقائق المتعلقة بالطبيعة والظواهر المرئية او المحسوسة، لا يغني في اليقين بها إلا الاعتماد على ميزان من التجربة والمشاهدة. إذ هي سبيلها الطبيعي الوحيد.

اما الحقائق المتعلقة بماض منصرم، أو مستقبل لم يقع بعد أو بقضية اعتبارية غير خاضعة لأي سبيل من سبل التجربة والحس، فإن طريق الوصول إلى علم يقيني بها ينحصر في البرهانين التاليين:

أولهما: ما يسمى ببرها التلازم، والقياس الجلي. ولسنا بصدد شرحهما الآن ، وأذكر القارئ بأنني فصلت القول يهما في مقدمة كتابي: كبرى اليقينيات الكونية.

ثانيهما: الخبر اليقيني الصادق، وهذا ما يتعلق به موضوعنا الذي نحن بصدده.

ومن المتفق عليه لدى العلماء جميعاً أن سبيل الخير اليقيني . في القضايا التي يتعذر فيها منهج التجربة والمشاهدة . يعد منهجاً علمياً سليماً للوصول من طريقه إلى الحقيقة، إذا توافر فيه شرطان إثنان:

أولهما: أن يكون مصدر الخبر موثوقاً به مقطوعاً بأنه أهل لأن يكون مصدراً له علماً وأمانة وصدقاً.

ثانيهما:أن يكون السبيل إلى ذلك المصدر سنداً من الرواة المتصلين بلغ درجة الصحة، ثم تجاوزها إلى درجة التواتر. والصحة في السند أن يكون رواة الخبر سلسلة موصولة الحلقات إلى مصدره الأخير، وأن يكون جميع الرواة ممن عرفوا بالصدق والضبط والوعي. أما التواتر فهو أن تكون كل حلقة في سلسلة الرواة جماعات كثيرة بحيث يحيل العقل إمكان اتفاقهم على الكذب.

فإذا اجتمع في الخبر هذان الشرطان، فلا جرم أن مضمون الخبر يصبح عندئذ حقيقة علمية، لا مناص من قبولها واليقين بها. وهو قانون تخضع له الفطرة الإنسانية عند الناس جميعاً، قبل أن ينساق وراءه العقل. فما من إنسان عاقل يجد نفسه أمام خبر اجتمع فيه هذان الشرطان إلا وينبعث كل من نفسه وعقله للتفاعل معه واليقين به.

إن كثيراً منا لم ير جدار الصين العظيم، ولم يشاهد أهرامات مصر، ولم يزر (تاج محل)، ولم ير الكعبة ولا طاف بها، ولكن أي واحد من هؤلاء، لا يساوره أدنا شك في وجود هذه الأماكن والآثار. بل هو لو رآها بعينه لما زاده ذلك يقيناً بوجودها، مهما كانت ثقافته، ومهما كان علمياً في أفكاره واعتقاداته. فما السبب؟.

السبب أنه اعتمد على منهج علمي سليم، لا يقل بحد ذاته عن منهج التجربة والمشاهدة في القضايا المحسوسة، ألا وهو منهج النقل بشروطه العلمية المعروفة.

وإذاً فإن اليقين الذي رسخ في كيانك بأن منخفضاً جوياً سيفاجئك أثناء النهار، إنما جاء بسبب يقينك السابق عليه، أعني يقينك بصدق علماء الأرصاد ودقة أحكامهم واختصاصاتهم، ثم بسبب السند المتواتر الذي تكفل لك بنقل أخبارهم بطريق أورثك اليقين.

واليقين الذي رسخ في كيانك بالجهاز العجيب الذي لم تره، ولم تعلم شيئاً عن كيفيته ودخيلة أمره، إنما كان بسبب ثقتك المتناهية بما يتمتع به العلماء الأوربيون من الطاقة العلمية المتفتقة، ثم بسبب التواتر الذي تحقق في نقل هذا الخبر، إذ تضافرت على نقله شتى وكالات الأنباء الموثوقة.

واليقين الذي يستقر في عقلك بأن الذي يقبل عدواناً، مع سبق عمد وإصرار، سيلاقي عقوبة الإعدام، إنما جاء بسبب اطلاعك على المادة التي تنص بصراحة على ذلك في قانون العقوبات (فهذا هو السند) ثم بسبب يقينك بأن الدولة التي تبنت هذا القانون صادقة ي

اتخاذه جادة في تطبيقه (وهذا هو مصدر الخبر). وحينئذ تتفاعل مع هذه المادة التي ليست في جوهرها أكثر من إخبار عن أمر غيبي لم يقع بعد.

وهكذا فإن تواتر السند + توفر الصدق والثقة بمصدر الخبر = يقيناً علمياً، لا يشوبه أي وهم، بالخبر الذي جاءك عن طريقه، على الرغم من أنه بحد ذاته امر غيبي خارج عن سلطان أي نافذة من نوافذ التجربة والحس.

فإذا كان هذا الكلام واضحاً (ولا أظنه يخفى على عاقل، ولا أتصور أن منصفاً يماري فيه) فإن المسلم لا يحمله إسلامه على الاعتقاد بأمر غيبي، إلا إذا كان خاضعاً لسلطان هذا القانون الذي فرغنا من إيضاحه. وما كان للإسلام الذي يقول دستوره الإلهي: (ولا تقف ما ليس لك به علم) أن يكلف أتباعه بأن يغمضوا العين وينغضوا الرأس، ويبتعدوا عن العقل، ليحملوا أنفسهم على اليقين بما لا يعلمون والاعتقاد بما لا يصدقون.

لقد آمن المسلمون أولاً بوجود الله ووحدانيته. ولم يكن سبيلهم الى الإيمان به مشوباً بأي غيبية، أو عفوية فكر، أو تقليد أو اتباع. بل كان معتمدهم هو رؤية الآثار ولمس الدلائل المباشرة. وهي دلائل بلغت من الكثرة والوضوح حداً جعل الكثير من العلماء يقررون بان مظاهر وجود الله عز وجل أوضح دلالة مما قد يحتاج معه الإنسان إلى وساطة فكر ونظر.

ثم إن إيمانهم بالله عز وجل، استلزم بدوره إيمانهم بنبوة الأنبياء عامة، وبنبوة محمد علية الصلاة والسلام خاصة. وقد قام عنهم هذا الاقتضاء في إجماله وتفصيله على أدلة علمية مباشرة لم يتوصل إليها بوساطة غيب ولا تقليد. وليس في هذا البحث الوجيز أي مجال لعرض هذه الأدلة. ولكن ارجع إذا شئت إلى مصادرها التي تتحدث عن ظاهرة الوحي في حياته عليه الصلاة والسلام، وعن القرآن وتحليله والدراسات العلمية المختلفة المتعلقة به، والتي تبحث في تحليل شخصية محمد عليه الصلاة والسلام، وتدرس الاحتمالات المختلفة في تفسير دعوته وتحليل ذاته.

فلما آمن هؤلاء المسلمون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم،اعتماداً على الأدلة التي ألمحنا إليها، كان من ضرورات ذلك أن يؤمنوا بأن القرآن الذي جاء به إنما هو كلام الله عز وجل، لم يتقوّله محمد (ص) على الخالق ولا كذب به على المخلوق. ويطول بنا الكلام لو انتقلنا إلى البحث في القرآن لاستخراج ما فيه من البراهين العلمية التي لا مرد لها، ولا مطعن عليها، والتي تجزم بأن القرآن ليس كلام بشر وما ينبغي أن يكون كلام بشر.

ولكن ارجع إذا شئت إلى المراجع التي تبحث في هذا كله، بأسلوب علمي موزون لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[٦][6].

فإذا استقر الإيمان عند المسلمين بهذه الحقائق الثلاث، وثبت ذلك في يقينهم، بأدلة علمية قائمة على منهج علمي لا لبس فيه ولا خداع ولا تضليل، فما الذي يقتضيه قانون العلم بعد ذلك، إذا رأوا أن هذا القرآن الذي ثبت لهم أنه ليس إلا رسالة من الله عز وجل إلى عباده في الأرض، يخبرهم بنصوص صريحة واضحة أن هناك حشراً للأجساد مع أرواحها بعد الموت، وأن بعد ذلك حساباً وميزاناً وصراطاً ثم جنة وناراً، ويخبرهم عن وجود عوالم أخرى من حولهم، وإن كانوا لا يرونها ولا يقعون منها على أثر كالملائكة والجان.. ويخبرهم ان لحياة كل إنساناً ميقاتاً تنتهي عنده، دون أن تتجاوزه أو تتخلف عنه مهما كانت المحاولات والأسباب؟!...

ما الذي يقتضيه قانون العلم تجاه هذه الإخبارات من كتاب ثبت باليقين انه كتاب الله، وثبت باليقين انه موجود بكل ما يقرره العلم له من صفات الحكمة والكمال؟!..

لماذا تكون إخبارات القرآن عن الحساب والجنة والنار، غيبيات لا يقرها العلم والعقل، فلا وجه لانصياع الإنسان لها، ثم تكون إخبارات قانون العقوبات التي أصدرته دولة ما، حقائق يقينية جديرة بالانصياع لها والاهتمام بها مع ان مضمون كل منهما لا يزال محجوباً في ظهر الغيب ومخبوءاً وراء سور المستقبل؟!..

لماذا يكون القرآن الذي أخبر عن ذلك كله مشكوكاً فيه، ثم يكون الكراس الممهور بخاتم الدولة قطعياً لا شك فيه؟.. ولماذا يكون تحذير القرآن من العقوبات التي يخبر عنها ويجزم بها حديثاً غيبياً ما ينبغي الالتفات إليه، ويكون التابعون له والمضمنون به أسباباً للتخلف وضعف الإنتاج، ثم يكون تحذير ذلك الكراس من عقوبات الدولة حقيقة ثابتة خطيرة جديرة باليقين والاهتمام؟!..

---

[٦][6] اقرأ تفصيل هذا كله في كتاب كبرى اليقينيات الكونية لمؤلف هذا الكتاب.

لماذا تصدق بشرة الأخبار الجوية و إخبارها عن أمر غبي تزعم أنه سوف يقع بعد حين، ثم لا تصدق نشرة رب العالمين ورب الأرصاد والمرصدين و إخبارها عن مصيرك، وكلاهما في الاتصاف بالغيبية سواء؟!..

أتريد أن أتولى الإجابة عنك؟.. إذاً فإليك الجواب: إن الذي يحملك على هذا التفريق، ليس عائداً إلى شيء مما تسميه بالغيبية أو الغيبيات، فإن كلا الأمرين سواء، يقر بذلك كل ذي بصيرة وعقل.

ولكن الذي يحملك على ذلك، هو عدم يقينك بالمصدر الذي تنزلت منه غيبيات الإسلام، على حين أنك آمنت واستيقنت بالمصادر الأخرى التي بلغتك منها تلك الإخبارات الأخرى التي عرضت لك نماذج منها.

فلو أنك آمنت بالله عز وجل، إيمانك بالقائمين على الأرصاد والمختصين بشؤونه، ولو انك آمنت بالله عز وجل إيمانك بوجود الدولة التي توعد وتهدد، ولو أنك آمنت بالله إيمانك الأعمى بالطبيب الذي تسلمه كل يقين عقلك وطمأنينة نفسك . إذاً لما فرقت بين متماثلين، ولما خالفت بين نموذجين لحقيقة واحدة، ولاتبعت القانون العلمي الذي تخضع له سائر العقول، وتنقاد له طرة البشر أجمع، وهو القانون القائل:

يقينك بالمصدر + تواتر الخبر عنه = ضرورة اليقين بالمضمون، وإن لم تره عيناك ولم يدخل تحت سلطان إحساسك.

لقد أخبرك الله عز وجل بأنه خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون، وأنه خلق الإنسان منذ أوجد أول أصل له في أحسن تقويم.

ولكن داروين اخبرك بأن الإنسان يحتمل ان يكون قد تصاعد من حيوانات أقل شاناً، وكلا الخبرين من الغيبيات التي تشمئز منها.

ولكني أراك مع ذلك تعتنق غيبية داروين على الرغم من تحفظه في الأخذ بها)[٧][7]من حيث تنصرف عن غيبية القرآن (على الرغم من قطعه بالأخبار عنها) فما السبب؟.

السبب أنك آمنت بداروين وصدق فراسته وواقعية حدسه، إيماناً غيبياً لا ترفده أثارة من برهان ولا علم، في حين انك لم تؤمن هذا الإيمان ولا نصفه بالخالق الحكيم جل جلاله، على الرغم مما هو ماثل أمامك من البراهين ودلائل العلوم، فآمنت بحدس الأول وتخمينه ثم ذهبت تسمي ذلك بحثاً وعلماً!.. وأنكرت اخبارات الفاطر الحكيم جلَّ جلاله ثم ذهبت تسميها غيبية وجهلاً!..

***

فرق ما بينك وبين المسلمين إذاً، ليس ما قد تتوهمه أو وهمه، من أنك تتسامى على الغيبيات لأنك رجل علم، وأنهم ينحطّون إليها ويغرقون فيها، لأنهم دون مستوى العلم. فإنك خاضع، شئت أم أبيت، في كل تقلباتك الفكرية والسلوكية، لأمثالها، ولأشد منها، في المعنى الذي تقول. وما في العقلاء عاقل، ولا في العلماء عالم إلا وهو يؤمن بأن الإخبارات الغيبية لا مناص من قبولها واليقين بها، إذا جاءت إلينا ضمن سلّم من القانون العلمي بشروطه وقيوده المعروفة عند العلماء.

إنما الفرق بينك وبينهم، أنهم آمنوا بمصدر الخبر، ووجدوا تواتر السند وارتفاعه إلى درجة اليقين، فأمنوا به علماً، وصدقوه قانوناً، والتزموه حقيقة لا مرَّد لها، وأنك جحدت أو شككت بالمصدر الأول، فلم تبال بعد ذلك أن يأتي سند الخبر متواتراً أو ظنياً، وجحدت بالأمر كله من حيث جحدت بالمصدر ذاته.

وحديثنا معك إذاً، ما ينبغي أن يكون في تحليل أمر الغيبيات وموقعها من العلم واليقين، وما ينبغي . وأنت رجل علم كما تقول . أن تخدعنا وتجرنا إلى هذا البحث الذي لن يأتي بطائل. وإنما يجب أن يكون حديثنا معك محصوراً في الدليل العلمي على وجود الله، وأن تكون جريئاً معنا في عرض المشكلة على هذا الأساس.

وعندما تفعل ذلك، وتلتزم بمنهجية البحث، والسير إلى الغاية من أول الطريق المرسوم، ننتقل بك إلى موضوع آخر ، ونكلف أنفسنا بإيضاح الواضحات، والكشف عن أمر لم يبق خافياً عن أي عاقل ينصف في التفكير والبحث وأن يتحرر من ذاته وما تنطوي عليه نفسه من عصبية وعقد وردود فعل، هو ادرى بها وأعرف الناس بأنه إنما يفكر بها ومن اجلها فقط، دون أن يكون معها شيء مما

---

[٧][7] يرد داروين اعتراضات كثيرة على نظريته المعروفة، في كتابه أصل الأنواع. من ذلك أن العلماء عثروا على هياكل لحيوانات تعود إلى ما قبل العصر الجليدي، ولدى المقارنة بين هذه الهياكل وأجناسها اليوم، لوحظ أنه لم يطرأ أي تطور خلال هذه الأحقاب عليها. وقد أجاب داروين على هذه الاعتراضات بقوله:)إننا لا ينبغي ان نعثر على جواب محدود معين على هذه السؤال، إذا ما عرفنا أننا لا جرم نعجز عن الإجابة على سؤال أقل من هذا تعقيداً). أنظر أصل الأنوا لداروين : ص٤١٢.

نسميه التدبر أو العلم أو البحث العلمي. ألا وهو البحث في أصل وجود الخالق عز وجل. ويليه البحث في نبوة الأنبياء، يليه البحث في أن القرآن كلام الله عز وجل. لتصل اخيراً إلى اليقين بأن هذا الذي تسميه غيبيات لا يقرها العلم، محفوظ في وقاية تامة من حصن العلم والمنطق، لا ينفذ منه إليه أي موجب من موجبات الشك والارتياب.

إذاً فمن المسؤول
عن تخلّفِ المسلمين

لقد وضح مما ذكرنا أن الإسلام لا يتحمل شيئاً من مسؤوليات التخلف الذي حاق اليوم بالمسلمين، لا فيما ينطوي عليه من ضرورة الإيمان بغيبيات أخبر عنها القرآن، ولا فيما يتضمنه من مبادئ وأحكام.

غير أن هذا لا يعفينا من ضرورة البحث عن أسباب تخلفهم.

إذ الواقع ان المسلمين اليوم متخلفون.. ولا ريب أن ثمة أسباباً تكمن وراء تخلفهم هذا؛ وكما لا يجوز أن تلصق هذه الأسباب، بدون أي مؤيدات، بالإسلام، لمجرد أن فينا من يكره الإسلام ويضيق ذرعاً بالتقيد به، فكذلك لا يجوز أن نقعد عن البحث عنها، رضاً بالواقع الذي نحن فيه، مستعيضين عن هذا البحث بنقد الإسلام وأهله، والإمعان في تقليد الغربيين بالقشور التي لا قيمة لها.

***

وعندما نطرح هذا السؤال: من المسؤول عن تخلف المسلمين؟ نجد طائفة من الباحثين يوفرون على أنفسهم عناء التفكير في الإجابة عليه، ذاهبين إلى الرأي القائل بأن للحضارات أعماراً كعمر الإنسان، فهي تنشأ، مثله، وضعف، ثم تسير إلى قوة، ثم تعود إلى ضعف، ثم تنتهي بموت.. فلابد لها أن تنتقل في هذه المراحل، ثم أن تلقي أخيراً حتفها مهما كانت الأحوال والظروف، ومهما أحيطت به من رعاية وحفظ، كالإنسان ذاته: لا بد أن يسير في هذه المراحل ذاتها مهما حذر وحاول؛ بل :كأيّ شيء مادي دخل تحت سلطان هذا الوجود: لا بد أن تجده مطبوعاً بطابع هذا القانون: ضعف، فقوة، فضعف، فموت.

وهم يعللون إدخالهم للحضارات ومقوماتها في دائرة هذا القانون، بأن الحضارة ليست إلا ثمرة جهود متناسقة بذلتها الموجودات الخاضعة لهذا الحكم. بدءاً من الإنسان، إلى أصغر مظهر من مظاهر الطاقة. فلا بد ان ينعكس على الثمرة سلطان القانون الذي يخضع له المثمر.

وربما أدخل بعض هؤلاء الباحثين، اسم الن خلدون، في قائمة أصحاب هذا الرأي؛ وربما استدلوا على ذلك ببعض ما قد جاء في مقدمته، مما يشبه ان يكون تقريراً لهذا الرأي.

والحقيقة أن ابن خلدون، وإن يكن شبّه الحضارات بأعمار الناس، ولكنه لم يقرر حتمية غروبها، كالحتمية الثابتة لغروب أعمار الناس. بل أسند كلاً من نشأتها وقوتها وضعفها إلى أسباب داخلة في اختيار الناس، وخاضعة لما من شأنهم أن يملكوه من طاقة وتصرف وجهد .. فهو ليس من هذا الرأي وأصحابه في شيء[٨][8].

ثم إن التعليل الذي يعتمده أصحاب هذا الرأي، تعليل باطل بحد ذاته، وإن جاء في مظهره الشكلي منطقياً سليماً!..

ذلك لأن الوجود الذي يتصف به جنس الانسان والمكونات الاخرى، ينقسم إلى قسمين:

وجود فردي، يتمثل في المشخصات الجزئية. فهذا هو الذي يخضع لقانون الولادة والوفاة وما بينهما من مراحل القوة والضعف، دون أن يكون لها أي اختيار أو قدرة على التحكم بهذا القانون.

ووجود نوعي، يتمثل في الماهيات المتكررة ضمن سلسلة المشخصات المستمرة. وهذا لا يخضع للقانون المذكور ولا شان له به. فإن الوجود النوعي، للقوة مثلاً، مستمر متصل خلال أحقاب عدة، وإن تنقل ضمن حلقات متغايرة في سلسلة الموجودات الفردية أو الجزئية التي يختلف الواحد منها الآخر. وإنما يتم النسيج الحضاري لأمة ما، بقوة من هذا الوجود الثاني، لا بحراسة قصيرة من الوجود الجزئي الأول.

---

[٨][8] إقرأ ما كتبه ابن خلدون في مقدمته تحت عنوان: فصل في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده.

وإذاً، فالحق الذي لا مناص منه، هو ضرورة البحث وأسباب التخلف الذي نعانيه، في موضوعية صافية، ورؤية كاملة. إذ لا جرم أن له أسباباً عائدة إلى تقصيرنا، كما أن للتغلب عليها وسائل خاضعة لجهودنا وإمكاناتنا.

وما الشيخوخة التي انتهت إليها حضارتنا اليوم، إلا ثمرة حكم اختياري تسببا له بملء اختيارنا.

وأحب أن يعلم القارئ الكريم، أنني لا الاحظ في تعداد الأسباب التي سأذكرها وأتناولها بالبيان والشرح، مجتمعاً خاصاً من مجتمعاتنا العربية والإسلامية. وإنما انظر في ذلك إلى مجموع هذه المجتمعات بشكلها الكلي. ولسوف نلاحظ أن واقع أمتنا العربية والإسلامية يعاني . في مجموعه الكلي . من وطأة هذه الأسباب.

كما أحب للقارئ الكريم، أياً كان، أن يعلم، أن البناء لا ينهض إلا على أساس، وأن الأساس لا يثبت إلا بعد إخلاء المكان من كل ما قد يكون فيه من عثاء وطمَّ وردم.

فمن تجاهل الغثاء الذي في أرضه، لم يستطع أن يتجاهل بعد حين التصدع الذي يظهر في داره، ثم الانهيار الذي لا بدَّ أن تنتهي إليه حاله!...

فلنكن جرآء في اكتشاف اسباب تخلفنا الذي طال انيننا منه وتبرمنا به، ثم لنكن صرحاء ومتعاونين في الإشارة إليها وفي السعي من أجل التغلب عليها. وإنما شفيعنا في ذلك، نبل الغاية، وشرف القصد، والسعي من أجل الوصول إلى الغد الأفضل. فذلك خير وأولى من أن تضجَّ من هذا التخلف الضجيج المتواصل، ثم لا نبحث في موضوعية وصدق عن أهم عوامله وأسبابه، أو أن نبحث ولكن بمثل العين الحولاء: نرى الأشياء في غير جهاتها، أو أكثر من حقيتها، نبصر الظالم ثم ننحط ضرباً ندم. ولم نستفد آنذاك من موضوعية في البحث ولا من جرأة في الحكم.

***

إن مجموع العوامل التي تتشارك في التسبب لتخلفنا، لا تخرج (في اعتقادي) عن العوامل التالية:

أولاً . فقد الاستقرار النفسي والفكري:

وهذا السبب، ينشأ بدوره عن عوامل مختلفة، يطول ذكرها وتفصيل الحديث عنها؛ من شأنها ان تثير ألواناً من الاضطراب في النفوس والأفكار.

وأياً كانت هذه العوامل، فمن الطبيعي جداً أن تثور في حياة الأمم والشعوب امثال هذه الاضطرابات، عندما تمر من حياتها لا فكرية والاجتماعية في منعطف كالذي نمر به اليوم. غير أن بلاءنا العظيم الذي نعاني منه، إنما هو في طول الفترة الزمنية التي استغرقها المرور في هذا المنعطف.

وإنها لفترة طويلة حقاً!..

لقد بدأت منذ أواخر عصر الخلافة العثمانية، ثم استمرت إلى يومنا هذا.

عمر طويل من الدهر، ونحن مبعثرون خلاله في سجن هذا المنعطف!.. تقطعت بنا السبل فيه عن الماضين فما نملك اليوم شيئاً من ذخره أو مقوماته، اللهم إلا الوصف والذكرى، وتخلفت بنا العثرات فيه عن المستقبل، فما يربطنا به إلاَّ الأحلام والأماني.

ولم يكن الانحراف إلى هذا المنعطف أمراً عائداً . في الجملة . إلى اختيارنا، بل تضافرت عليه عوامل مختلفة أفقدتنا القدرة على التحكم بأمرنا:

١. هرمت الخلافة العثمانية واصابها الونين وتسلل إليها الفساد، بمقدار ما كان لها قبل ذلك الحظ الأوفر من القوة والصلاح والتماسك؛ ثم انتثرت حطاماً بفعل عواصف الطورانية التي اهتاجت من داخلها، والخطط الصهيونية التي احاط بها كخيوط العناكب من خارجها[٩][9].

[٩][9] إقرأ مذكرات حاييم وايزمن لتقف على تفصيل هذا المجمل.

٢. تسلل المتسابقون إلى المغانم، يتقاسمون فيما بينهم الميراث.. ميراث بلادنا الإسلامية في هذه المنطقة. كل يحتج للحصول على ما يسعى إليه، بالجهود التي بذله في سبيل تحطيم طوق الخلافة العثمانية، وبالمزيد من الحقن التي أثقل بها جسم (الرجل المريض) استعجالاً لموته والقضاء عليه.

٣. نهضت الدول الاوربية نهضتها، ودخلت عصر (البخار) الذي يشبه في يومنا هذا عصر (الفضاء) وركبت متن الدراية والصناعة. فانبهرت أبصارنا وعشيت عيوننا لمرآى هذه النهضة، وكان من أهم اسباب ذلك انحسار أسباب القوة عن حياتنا، واشتغالنا بحال (الرجل المريض) دفاعاً عنه أو تعجلاً به.. ثم انتشار عقد وحدتنا بين أيدي المقتسمين والهابين.

٤. فكان من آثار هذا الانبهار ذلك السعي التقليدي الاعمى وراء أوربا، أملاً في نهضة كنهضتها، وأصبحنا نلتمس الاصلاح من السبل ذاتها التي تلمستها أوربا، واخذنا نضع الإسلام في الميزان ذاته الذي وضعت فيه أوربا دينها. كل ذلك بدافع من مركب النقص الذي حاق بنا والانبهار الذي عشيت له أبصارنا.

ولقد استغلت بريطانيا مركب النقص هذا، فحاولت . وقد نجحت في محاولتها . ان تبث لها المركَّب فلسفة غرستها في أغوار نفوسنا، إذ أوهمتنا أن أي نهضة إسلامية كالتي نهضتها أوربا لا تتم إلاَّ من وراء ثورة إصلاحية في نطاق الايديولوجيات والتصورات الجينية مهما اختلفت هذه الأديان عن بعضها[١٠][10]وسرعان ما خدع بهذا الكلام كثير من الباحثين والمفكرين والعلماء. فوضعوا لبلادهم برامج إصلاحات دينية إسلامية، كالتي وضعها أقطاب النهضة في أوربا، وسرعان ما انتشر لهم ذكر، وذاع لهم في الناس الثناء والمدح، ورفع لهم الخادعون ألقاباً مرضية رنانة، فانتشر في الناس أنهم أقطاب الإصلاح الديني، وانهم طليعة نهضة شاملة في بلادنا العربية والإسلامية، كما كان زملاء لهم طليعو النهضة التي نهضتها أوربا.

وهكذا، زجت بنا هذه العوامل، التي أذكرها اليوم هنا مجملة، إلى هذا المنعطف الذي لانزال نتعثر فيه إلى يومنا هذا.

فلا نحن أبقينا صلاتنا المختلفة المنسجمة مع الماضي، تحت مظلة المنن الكونية للتطوير، وفي ميزان المنطق والعلم. ونحن حققنا شيئاً من أمنيات اللحاق بنهظة تشبه نهضة الآخرين. بل بقينا، كما قلت، نتهارج ونتخاصم في سجن هذا المنعطف الثقيل!...

ومن خلال هذا التخاصم والخلاف، طرحت أفكر وآراء وشعارات مصارعة متناقضة. بعضها يتنكر لكل ما هو ماض لمجرد أنه ماضٍ وقديم...وبعضها يذهب إلى النقيض من ذلك، فيحاب كل جديد لمجرد انه عنوان تناقض مع القيم، وآخرون من دونهم ينادون، في تروّ وتدبر، بالتمسك بالحقيقة وإن كانت قديمة والتقاط كل مفيد وصالح وإن كان وافداً وجديداً.

هؤلاء واولئك والآخرون لا يزالون يتصارعون .. يتصارعون في جو لا يكاد يسمح للعقل ان يهيمن ولا للفكر ان يتحررن وإنما الذي يهيمن فيه النفس وحظوظها والاهواء وعصبياتها. ويضيع في غمار ذلك صوت العقل والمنطق الصفي.

ترتد انعكاسات هذا الصراع على مناهج التربية والتعليم، وتتسابق أصداؤها إلى منابر الإرشاد والتوجيه، فينتقل أدواره بشكل اعظم عتواً وأكثر تشنجاً إلى الجيل الناشئ الجديد.

وهكذا يتلاقى الكبار المعلمون والصغار المتعلمون شيعاً واحزاباً، على حلبة من الصراع لا ينتّهي ولا يثمر...

وقضايا المصير وسبل النهوض والتقدم خاوية من حولهم تنتظر أن يحزموا أمرهم للاتجاه إليها وبذل الجهود المشتركة في سبيلها.

في هذا المناخ الذي وصفت يتبدد الإشراق الفكري ويزول الاستقرار النفسي، ويذهب الفرد ضحية الغشاوات التي تتجمع على صفحة الفكر والاضطراب الذي يهتاج في اعماق النفس. وهل الأمة أو المجتمع إلا الفرد المتكرر ؟ فتتكاثف الحجب بينه وبين سبل العلم والإبداع ويظل دائراً وسط قوقعة التقليد والتمزق والاتباع.

ثانيا . فقد التخطيط المستوعب:

وأقصد بالتخطيط المستوعب، ذاك الذي يتألف منه منهاج كامل، من شأنه أن يجند النشاطات الاجتماعية والفكرية والاقتصادية ، بحيث يتضافر منها كلها قائد واحد، يقود قافلة المجتمع كله في طريق موحد نحو التطور.

---

[١٠][10] انظر كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين.

ذلك لأن عملية التطور الاجتماعي العام . وقضايا التنمية جزء منها . لا تتحقق إلا بعون منسجم متكافئ من سائر الجهود الفكرية والاجتماعية والاقتصادية. فإذا بدا أي تشاكس بين بعض هذه النشاطات، واستفحل قبل القضاء عليه، اتجه من ذلك عامل سلبي، يزداد اثره اتساعاً مع امتداده وتوغله في المجتمع، كما تزداد المساحة اتساعاً بين ضلعين لزاوية متفرجة.

ونظراً لخطورة هذا الانسجام واهميته، كان التخطيط المتكامل، من أجل ضمانات التطور وتصعيده، أمراً بالغ الأهمية في أي مجتمع من المجتمعات.

وغير خاف على أحد ممن يتابعون سير التطور في العالم أن موضوعاً جديداً، اسمه

(التخطيط) قد أخذ منذ حين، مكان الصدارة بين العلوم الهامة التي تدرس في المعاهد والجامعات الغربية المختلفة، بل هناك الجامعات والمعاهد التي انشئت خصيصاً لخدمة هذا الفن، بعد أن تجلت أهميته بشكل لم يكن داخلاً في الحسبان من قبل.

فما هو نصيب هذا التخطيط من نشاطاتنا المتنوعة التي تتماوج على صعيد المجتمع العربي العام، بقطع النظر . كما قلت . عن ملاحظة أي بقعة خاصة منه؟..

لا ريب أن هناك كثيراً من المؤسسات الخاصة بالإحصاء والتخطيط، تعج بالعاملين والباحثين والموظفين؛ غير أن ثمرات معظم هذه المؤسسات، تقف عند حدود لا تتجاوزها، هي وضع الجداول وترقيم الإحصاءات ورسم البيانات، على أن هذه أيضاً كثيراً ما تكون محصورة في نماذج ضيقة، واعمال شكلية لا تتعداها.

أما صلة ما بين الواقع الاجتماعي العام، وهذه البيانات ومقتضياتها، فتكاد تكون مقطوعة، أو موصولة بخطوط دقيقة واهية عديمة الجدوى. لأضرب لك بعض الأمثلة، راجياً ألا تتصور كونها اكثر من نماذج يعاني منها المجتمع العربي عامة، بقطع النظر عن فرق ما بين قطر وآخر في ذلك:

***

١. كلنا يعلم أن دفاً واحداً من التنجيح التعسفي، في مرحلة الشهادة الابتدائية، يعكس اضطراباً ممتداً في الخط البياني لسير التطور والتنمية، على مسافة سنوات طويلة. بل سرعان ما ترسخ له جذور معقدة في تربة المجتمع، لا يكاد يقوى على امتلاكها إصلاح ولا تطهير!.

هذا، فيما يتعلق بدفعة واحدة، في مرحلة يهون أمرها، كمرحلة الشهادة الابتدائية.

فكيف، عندما يكون هناك دفعات متتالية من هذا النجاح التعسفي.. لا دفعة واحدة؟.. وفي مراحل الدراسة الإعدادية والثانوية وشهادتهما، لا في مرحلة الدراسة الابتدائية البسيطة وحدها؟!...

هل تستطيع أن تتصور أي تخطيط سليم لاستيعاب الجامعة كل هذه الأمواج التي اعتسفتها رياح العشوائية أو العوامل الخاصة؟!...

أم هل تستطيع أن تتصور أي تنسيق سليم يمكن أن يقوم . بعد هذا . بين الاختصاصات الجامعية واحتياجات المجتمع والدولة؟...

٢. اما في نطاق بحوثنا وقضايانا الاجتماعية، فأنت لا تستطيع أن تمسك، من كل ما قد تستعرضه أمامك من دراسات وبحوث وتوجيهات في نطاق البث والإعلام، بخيط يوصلك إلى جذور تخطيط يتصل بما نسميه السبيل الموحَّد نحو التنمية والتطوير!.. ومرة ثالثة أذكرك بأنني أضرب مثالاً بما هو واقع في مجموع عالمنا العربي هذا، دون النظر إلى بقعة أو أخرى بحد ذاتها.

اصغ إلى كل ما قد تستطيع الإصغاء إليه من هذه البحوث والدراسات والتوجيهات الاجتماعية، تجدها في مجموعها متنافرة المضمون متخالفة القصد آنية الفكر والنظر، ثم تنبش بحثاً عن جذورها في تربة التخطيط العام المترتب بدوره على الدراسات الدقيقة الموضوعية لواقع المجتمع واحتياجاته، فلا تحس لها بأي جذور!..

ما اكثر البحوث والتوجيهات التي تنعى . مثلاً . على المرأة الاستقرار في دارها، وتتكر على من يدعو إلى مزيد من الأيدي العاملة، والناشطة في المرافق المستحدثة والمصانع الجديدة.

ولكن ما أكثر البحوث والتوجيهات الاخرى التي تنطلق إلى جانب تلك، لتحذر المجتمع من انفجار سكاني متنوع، ولتهيب بكل زوجين أن يبذل كل منهما الجهد في سبيل إقلال عدد الصغر ما امكن!.. وربما كانت الأقلام التي تشكو هنا من الكثرة، هي الاقلام ذاتها التي تشكو هناك من القلة..و(ربما) ههنا للتكثير وليست للتقليل!..

نحن بحاجة ي عصر التصنع إلى مزيد من الايدي العاملة، لذا يفضل للمرأة الا تقر في دارها وألا تتفرغ لتربية صغارها.. إلا اننا بحاجة ايضاً، وفي الوقت ذاته، إلى الإقلال من هذه الأيدي، وإلى التقليص من عدد السكان لأننا بين يدي انفجار سكاني مداهم، ولذا يفضل التحديد من النسل!..

فأين هو مكان التخطيط من هذين التوجيهين المتعارضين بل المتناقضين؟ ولست . بهذا الصدد . متشبثاً بأحد التوجيهين ضد الآخر، ولكني إنما أنشد التخطيط فقط، حتى وإن كان تخطيطاً تعوزه الدقة في الدراسة والبحث.

ثم ظهرت، في مجتمعنا العربي العام ، إلى الآن، دراسة(ميدانية) للاعداد التي يحتاج اليها هذا المجتمع . حتى ولو بشكل تقريبي . من العلماء الممتازين والمبدعين وأرباب المهارات النادرة، لتسير عجلات النهضة والتطور فيه، ليعلم بعد ذلك مدى الكثافة السكانية التي نحن بحاجة إليها، بناء على ما هو معروف عند الديموغرافيين من قانون الاصطفاء الطبيعيين ثم ليتخذ بعد ذلك الموقف المدروس الموحد من ضرورة السعي إلى الإقلال من الكثافة السكانية أو إلى زيادة هذه الكثافة، ثم لتوجه سائر البحوث والتوجيهات والتوعيات الاجتماعية، بشكل متناسق نحو ما هو المطلوب؟...

لو تحققت دراسة دقيقة مستوعبة كهذه، إذاً لزال كل تشاكس واضطراب من البحوث والأفكار الاجتماعية التي ألمحت إليها، ولما قام حولها أي شقاق أو خلاف في الرأي.

٣. وأما على الصعيد الاقتصادي، فإنك لتعلم أنه لا بدَّ لسلامة التنمية ومضاعفة الدخل، من تنسيق سليم بين الانتاج والاستهلاك، يخطط له أصحابه هذا الاختصاص بدقة، ويتم تنفيذه برقابة شاملة.

فهل تحقق، على الصعيد التنفيذي، تخطيط مستوعب عام، تحركت النهضة الاقتصادية في بلادنا على هديه؟..

إنك لتعجب، إذا علمت أن كثيراً من الأدوات الكمالية، دخلت بلادنا، وبدأت تنتشر فيها مع دخولها في أوفر البلاد الأوربية تقدمت تقدماً ورقياً.

يقول جيسكار ديستان في كتابه الديموقراطية الفرنسية الذي الفه عام١٩٧٦:

(..ومنذ خمسة وعشري سنة، لم يكن أحد يملك غسالة ولا تلفزيوناً . يقصد في فرنسا . أما في عام ١٩٧٥ فسبع أسر من عشر تملك الاولى، وتسع من عشر تملك الثاني. وفي عام ١٩٥٣ كان الذين يملكون سيارة كما يلي: ٨% من العمال، و٣٢% من الكوادر الوسطى، و٥٦% من الكوادر العليا. ولكن هذه النسب أصبحت عام ١٩٧٣ كما يلي: ٦٦%من العمال، و٨٦%من الأطر الوسطى، و٨٧%من الأطر العليا)[١١][11]

ومن المعلوم أن متوسط الفترات الزمنية التي دخلت فيها(الغسالة) بلادنا العربية تعود إلى المدة ذاتها، أي إلى ما قبل خمسة وعشرين عاماً. أما متوسط المدد الزمنية التي بدأ فيها انتشار التلفزيون فربما تأخر عن وقت انتشاره في فرنسة خمسة أعوام فقط.

ولا ريب أنك تستطيع أن تقيس على الغسالة والتلفزيون، مختلف أنواع الكماليات، كالأزياء، وأدوات التجميل، وفرش البيوت، والتحف التزيينية..الخ.

وإنما مكان الغربة في هذان أن تقف منطقة نامية، تعالج أسباب التخلص من تخلفها، مع فرنسة . وهي تمثل نموذج التطور الأوربي المعاصر . كفرسي رهان، على قدم المساواة، في سباق الاستهلاك والسعي للحصول على الكماليات، على حين يقوم بينهما الفارق الكبير المؤسف في نسبة الانتاج والدخل القومي.

---

[١١][11] الديمقراطية الفرنسية ترجمة الاستاذ حافظ الجمالي ص:٢٨.

وهل هناك بلاء أعظم من أن لا تستطيع أمة التعبير عن رغبتها في التطور والرقي الاقتصادي، إلا بمزيد من الاستهلاك، ومزيد من التنافس على الكماليات؟.

وواضح أنني لا اعبر بهذا عن أسفي من أن تدخل الكماليات مجتمعاتنا العربية النامية مع دخولها البلاد المتطورة كفرنسا وغيرها، لو سلمت العواقب. فما من إنسان إلا ويريد لامته مزيداً من السعادة وأسبابها.

ولكن الأمر المؤسف والمؤلم حقاً، هو أن يكون هذا وحده عنوان تدمنا، أي أن تكون وسائل الرفاهية والنعيم لدى الدول المتطورة والمتقدمة ثماراً يانعة لإنتاجها وتفوقها الاقتصادي، وتكون عندنا فلذة نقتطعها من جسومنا لنرضي بها نشوة ساعة، ثم نستفيق على آلام لا تطاق!..

بيد أن هذه المفارقة التي ليس لها من تأويل سائغ، هل كانت تعمل في بلادنا، لو كان ثمة تخطيط مستوعب يضع الأمة أمام سبيل مرسوم، تبلغ منه إلى الاستفادة الحقيقية من ذخرها وكنوزها ومختلف ثرواتها، وينظم لها منهجاً إلى مضاعفة دخلها، وإحياء الصناعات المفيدة في بلادها، لتستقل باستغلال خيراتها ولتصل إلى درجة الاكتفاء بذاتها؟.

فإن قلت: التخطيط موجود، ولكن لأمر ما لا يتجاوز هذا التخطيط نطاق الجداول المرسومة والبيانات المكتوبة والتقارير المرفوعة . أقول لك: إذاً فنحن أمام السبب الثالث الذي يعود إليه قدر كبير من موجبات هذه الظاهرة، فلننتقل إلى الحديث عنه.

ثالثاً . فقد الثقة بين قطاعات الأمة:

وأقصد بقطاعات الأمة ما يشمل الحكام والمحكومين على السواء.

وقبل أن أشرح لك أثر هذا السبب الثالث، في عرقلة السبيل إلى التطور والرقي، يجب أن أذكِّرك بأن الدخول في أي مشروع إنتاجي، مهما كان نوعه واتساعه، إنما يعتمد قبل كل شيء على رصيد من التفاعل والتعاون بين الأطراف والفئات كلها. فلا يمكن له أن يأتي بأي نتيجة إيجابية ذات قيمة، إذا ما كانت دعامته مكونة من جهود طرف واحد.

وإنما أقصد بالتفاعل أو التعاون، ذلك القدر الشامل منه، والذي ينبسط على رقعة الأمة كلها. وإذاً فلا قيمة لتعاون تنهض به طائفة من الناس فيما بينها، وسط أمة من الناس كثيرة، مهما تنوعت اختصاصات هذه الطائفة ومهما اتسع سلطانها.

ذلك لأن مجرد اتصاف أفراد هذه الطائفة بكونهم فئة، مقابل فئات أخرى، يفسد كل قيمة ذاتية لكثرتهم وقوتهم.

إذ إن أول مظهر من مظاهر قوة الطرف الواحد أو الفئة الواحدة . في مثل هذه المهمة . أن تتلاقى هذه الفئة، أياً كانت، على صعيد من التفاهم والتواثق مع الفئات الأخرى.

وبالمقابل، فإن أخطر مظهر لضعفها وخيبة مساعيها، أن يتوقع نشاطها ضمن واقعها الخاص بها، وجانبها الذي لا يشركها فيه غيرها.

إن فئة ما من أفراد الأمة، تستطيع أن تحطم بقوتها دولة، وأن تقهر شعباً، وأن تسيطر على حكم. ولكنها لا تستطيع أبداً أن تحقق بهذه القوة وحدها تقدماً وأزدهاراً وتحريراً من أسباب الضعف والتخلف. ذلك لأن بين طبيعة الأمرين فارقاً كبيراً:

الأمر الأول، وهو القهر والاستيلاء، لا يعتمد إلاَّ على ما لدى تلك الفئة من عزيمة وقوة ودقة تخطيط.

أما الأمر الثاني، وهو تحقيق التقدم والازدهار، فإنما يعتمد على استخراج أسباب القوة ومقومات التقدم، من جميع فئات الشعب وأفراده، ثم على ضفرها جميعاً وتوجيهها في طريق التطور والرقي.

أجل، إن الأمر الأول، ليس أكثر من لكمة تسدد إلى هدف. وإنما يكفي من أجلها يد واحدة. أما الأمر الثاني، فإنما هو كالتصفيق لا ينبعث صوته إلا باجتماع الكفين والتقائهما . في خيرة وحرية تامة . على القيام بعمل واحد. إن في فئات الناس، من أسعفتهم ملكاتهم واستعداداتهم بالحصول على الخبرات العلمية والفنية فهم فقراء فيما عداها. ومنهم من اتجهت بهم نشاطاتهم إلى التجارة وسبل الثراء، فلم يحصلوا على شيء غير ذلك. ومنهم من نالوا حظاً من المهارات اليدوية ونحوها. ومنهم من تيسرت أمامهم آفاق المعرفة والفكر، فامتد لهم من ذلك سلطان إلى افئدة الناس وعقولهم يواجهونهم ويجمعون شتات أفكارهم على صعيد من الثقافة والدراية والوعي.

ومما لا ريب فيه أن الأمة لا تنهض إلا بمزيج من هذه القدرات كلها. فلا بد إذاً من تعاون حقيقي مخلص بين هذه الفئات كلها. ولا بدَّ، لكي يتحقق هذا التعاون، من الثقة تشيع فيما بينها.

إلاَّ أن هذه الثقة لا يمتد نسيجها فيما بين هذه الفئات، إلا تحت مظلة حكم رشيد شفوق على مصالح الأمة، تأتلف عليه القلوب، وتطمئن إليه النفوس، ثم يحظى من مقومات الاستقرار بما يجعل الناس في مأمن من تقلبات غير متوقعة، وطفرات لم تكن في الحسبان.

إن هذه الثقة بهذا الشكل الذي ذكرت، لا وجود لها إلا في ظروف متباعدة وأحوال متجزئة، وربما كان العامل الأكبر في فقدها أو ضعفها، الظروف التي تمر بها المنطقة عموماً، ولا ريب أن من الصعب أو الظلم أن نحمل جريرة هذه الظروف فئة بذاتها أو أشخاصاً بأعيانهم.

وعلى كل فالذي يهمني في هذا الصدد هو أن يدرك القارئ مدى أثر شيوع الثقة بين فئات الأمة في تسيير عجلة التطور والتقدم، ثم أن يدرك المعين الأول لهذه الثقة، وكيف أنه إذا جفَّ هذا المعين، تناثرت جهود الناس، وتحركت في اضطراب وتدابر لا ياتيان بخير.

أنا أعلم كثيراً من أصحاب الخبرات والاختصاصات العلمية المختلفة، في بلادنا العربية، قد فرغوا من وضع مشاريع دقيقة لإقامة مصانع مختلفة ذات أهمية قصوى لهذه الأمة، ولكن مشاريعهم هذه موضوعة على الرفوف منذ زمن طويل، لأنهم التجؤوا إلى اصحاب الأموال والثروات ليساعدوهم بالاموال والنفقات اللازمة، مع تقديم الضمانات بالربح السريع الوفير، لم يجرؤ الأغنياء على المغامرة.. ولم يطمئنوا إلى سلامة العاقبة.. ولم يثقوا بنتيجة هذه المصانع بعد أن يستقر أمرها ويظهر نجاحها.. فبقيت الأموال دفينة، ونامت المشاريع على الرفوف[١٢][12].

ولكن كيف السبيل إلى غرس هذه الثقة؟.

الواقع أن هذه الثقة لا تأتي إلا بعوامل ثلاثة:

١ . الشعور بالاستقرار.

٢ . يقين الأمة باخلاص أولئك الذين يقودون قافلة التطور والتنمية.. وشعورهم بأنهم يتحرقون على رفها إلى المستوى الأفضل..

٣ . التلاقي على مبادئ وعقائد متفق عليها، لتعالج مشكلات التخلف على أساسها، ولاقتباس خطة التنمية وسبيل التقدم على ضوئها.

وقد علمت أن هذه الأمة، لا ترضى . في غالبيتها العظمى . بديلاً عن سبيل الاسلام ومبدئه في حل مشكلاتها وتسيير عجلة التطور والتقدم في حياتها. على ذلك عقدت عزمها وتم قرارها. فمن العبث إذاً أن نتجاهل هذا العزم والقرار، لا سيما وقد اتضح أن هذا التجاهل لن يحملها . مجموعها . على تغيير مبدئها الذي آمنت به، ومن ثم فلن يورثنا إلاَّ الاضطراب في السعي والإخفاق في التجربة.

ولعل خير مثال حيّ يجسد أمامك هذه الحقيقة، تجربة بنوك الإدخار في منطقة ميت غمر بجمهورية مصر العربية.

لقد قامت هذه التجربة بعد ان أخفت دعوات وتوعيات كثيرة ومتنوعة، وجهت إلى المواطنين يهيب بهم أن يتقدموا بأموالهم ليوظفوها في اعمال التنمية، وليتكون منها رؤوس أموال وطنية تنهض بالبلاد نهضتها الاقتصادية المنشودة.

ثم إن جميع هذه التوعيات والدعوات أخفقت، وبقيت رؤوس الاموال الوطنية، أو معظمها، حبيسة في الصناديق، أو (تحت البلاط) كما قالوا.. ولم يجد الناس لديهم من الجرأة ما يبعثهم على الاستجابة إلى عمل لا ثقة لهم به، ولا طمأنينة لديهم إلى نتائجه.

حتى إذا تقدم الدكتور أحمد عبد العزيز النجار بمشروعه المصرفي الخالي عن الفوائد الربوية، القائم على نظام الإسلام وحكمه، المستهدف إلى خدمة الناس في تنمية أموالهم بأفضل الطريق، دون استغلال لها ولا عدوان عليها، بدأ الدكتور النجار فجعل رأس مال هذا المشروع قبل كل شيء، الاستحواذ على الثقة.. وانطلق ينشر بين الناس مشروعه هذا، ويضع أمامهم عقيدته وإيمانه، ويقنعهم بأنه

---

[١٢][12] من هؤلاء، شاب متخصص في أحد فروع الهندسة الكيميائية، وضع مشروعاً متكاملاً لصناعة الرخام؛ إلا أن مشروعه هذا تعثر ونام على الورق، لأن أحداً من الأثرياء لم يجرؤ على أن يمول هذا المشروع الذي يغطي تكاليفه بعد ستة أشهر فقط من الانتاج!...

لم ينهض بهذا العمل إلا ليخدم مصالح الناس بسبيل يبلغ به مرضاة الله عز وجل، وأن المشروع لا يستهدف استغلال أموالهم ولا الربح من وراء ظهورهم، وإنما يهدف إلى تحقيق منهج القرآن في محق الربا وتربية الخبرات الفنية ورؤوس الاموال لأصحابها.

وعندئذ، وعلى اعقاب الثقة التي انتشرت بين الناس بصدق هذا المشروع وإخلاص صاحبه، تجاوبت البيئة كلها، وظهرت الاموال الحبيسة، وتقدمت الخبرات العلمية والاقتصادية، ودار دولاب العمل، وسعى سعيه الحثيث العجيب، وأنتج نتاجه المعروفة خلال سنتين فقط، فحقق صناعات مفقودة قامت لحساب البنك، وقَّدم قروضاً لصناعات ناجحة قامت لحساب اصحابها[13]١٣، والخلاصة أن شيوع الثقة بين فئات الأمة عموماً، أمر جوهري لا بد منه لتحقق أي نهضة اقتصادية حقيقية.

وتحتاج هذه الثقة إلى دعائم تنهض عليها. وبعض هذه الدعائم إنما تعصف بها المشكلات والظروف الخارجة عن إرادة الاشخاص وسلطانهم. غير ان بعضها الآخر يعود إلى قدرات الأفراد وتصرفاتهم: حكماً وشعوباً.

***

رابعاً . عدم ضفر المعارف وأصول الثقافات كلها لمحاربة التخلف:

يظن كثير ممن يثورون على التخلف وأسبابه، وينشدون التقدم ويبحثون عن سبيله، أن مفتاح التقدم العلمي والرقي الاقتصادي، كامن في الوسائل العلمية والتنظيمات والتخطيطات المباشرة فقط. ولا يتصورون أن للمعارف والاخلاق الإنسانية واصول الثقافة أي دور في الموضوع ١..

فأنت ترى ان اهتمام هؤلاء الكثيرين منصرف إلى الحديث عن التقنية وما يسمونه بالمناهج العلمية في الاقتصاد وعملية الانتاج.. وربما توهموا أن الكثير من العلوم والمعارف الاخرى إن هو إلا تفاهات نظرية تقصي الامة عن مجال العلم والانتاج..

وقد انصبغت أوضاعنا وافكارنا الثقافية بقدر كبير من هذا التصور، وانعكس ذلك على كثير من تصرفاتنا واتجاهاتنا التي لا مجال هنا لتفصيل القول فيها، وأعقب ذلك إعراضاً وجهلاً بكثير من العلوم والمعارف اللإنسانية المختلفة.

والحقيقة التي لا ريب فيها أن هذه النظرة تنطوي على سذاجة بالغة في تصور طبيعة الحياة، وعلاقة العلوم المختلفة بعضها ببعض، ثم علاقتها جميعاً بحوافز الجد والنشاط العملي.

ليست قواعد التكنولوجيا واصول الاقتصاد، هي التي تخلق في الامة سعيها العلمي ورغبتها في التطور الاقتصادي، بل إن هذه القواعد والاصول ليست اكثر من سلم موضوع في الطريق. ولا بدَّ بعد ذلك من إيجاد حوافز الصعود عليه، على سليم. فكيف السبيل إلى إيجاد هذه الحوافز؟..

---

[13]١٣ من امثلة ما حققه هذا المشروع خلال الفترة١٩٦٤ . ١٩٦٦فقط:

١. عمل المصرف على إنشاء مصنع للطوب يزيد متوسط إنتاجه اليومي على ١٩٠٠٠طوبة، بتكاليف بلغت١٥ألف جنيه، وقد نجح هذا المشروع إلى درجة غير متوقعه.

٢. أنشأ المصرف بالتعاون مع المواطنين مصنعاً لعلب الكرتون، على أساس اقتسام الأرباح مناصفة، وبعد ستة أشهر بدأت حسابات الربح أكثر مما كان مقدراً.

٣. ساهم المصرف مع بعض المواطنين في مشروع لصناعة الاسمنت، ولم يكن بينهما من إشراف إلا الثقة المتبادلة بين الطرفين.

٤ . قدَّم المصرف قرضاً كبيراً لأحد عملائه المدخرين، لإقامة مصنع للصاج على أساس اقتسام الأرباح بين الطرفين بنسبة٣٠%للبنك و٧٠%لصاحب المصنع، وبعد ثلاثة أشهر بدأ المصنع يسدد رأس المال ويقدم إلى البنك حساباته من الأرباح.

٥ . قدم المصرف للفلاحين قروضاً صغيرة للقيام بشراء مواد خام لصناعات يدوية يباشرونها في منازلهم، أنضر (تقرير إحصائي عن نشاط بنك إدخار ميت غمر المحلي) ، للدكتور أحمد عبد العزيز النجار وما كتبه الدكتور محمد عبد الله العربي في المؤتمر الثاني لمجتمع البحوث الإسلامية.

لا سبيل إلى إيجاد هذه الحوافز إلا عن طريق تغذية العقول بالمعارف الإنسانية المختلفة، مضمومة إلى ثقافة الأمة من لغة وآداب وتاريخ واعراف.

فالجماعة التي لا تملك حصيلة علمية كافية من ذلك كله، لا يمكنها أن تتصور وجه الاستفادة من سلم العلوم والصناعات، بل لا يمكنها ان تستهدف أي غاية علمية تسيطر على كيانها ورغباتها بالدفع والتحميس.

ولا يتسع مجال مثل هذه الرسالة العجلى لبيان اسباب هذه الضرورة، وجذور الصلة بين المعرفة الإنسانية المختلفة وأي نهضة علمية أو صناعية تنهضها الأمة، بأكثر من هذه الكلمات الوجيزة:

ان أي سعي من الانسان نحو أي لون من ألوان التطور في سبيل عيشة وسعادته، ثمرة طبيعية لمعرفة هويته وذاته، من حيث هو فرد، ومن حيث هو عضو في المجتمع. ذو صلة بهذه الطبيعة. وكلما ازداد الانسان دقة في هذه المعرفة، يزداد علماً بما يحتاج اليه الانسان، ويزداد تبصراً بأفضل السبل الى تحقيق المزيد من اسباب سعادته ومقومات استقراره ورغد عيشه خلال رحلة هذه الحياة.

فكيف نكون دقيقين في معرفة هويتنا؟

لابدَّ لذلك من ان ندرس المقومات الذاتية لانسانيتنا، ثم ندرس طبيعة هذه الذات وخصائصها النفسية، ثم نتعرف الى متطلباتها الحقيقية، بحيث تكون على بينة من الفرق بين ما هو مفيد لها ومضر بها.

ولا يتم ذلك على خير وجه. الا باستعانة جادة وموضوعية بالتاريخ، نستعرض فيه وقائع الأمم وحياة الشعوب وتجارب الدول.. ونطلع منه على نماذج للسعادة والشقوة الانسانية وعوامل كل منهما وآثاره بالنسبة للفرد والجماعة.

وهذا ايضاً لا يتم الا بدراسة جادة للسنن الكونية وقوانين الحياة وتطوراتها. ولن تطلع على مكنون هذه السنين وقيمتها القانونية المبثوثة في المكونات، الا اذا تأملت في نبأ ما وراء المكونات ذاتها، وفي مصدر هذه السنن والقوانين المهيمنة عليها، ومدى علاقة العلم والعقل الانساني بها.

سلسلة من الدراسات الانسانية، تنطلق بشكل حتمي من الأساس الأول الذي لابد منه، ألا وهو ضرورة معرفة الذات الانسانية وخصائصها الطبيعية والنفسية، بدونها لا يمكن ان ينضج أي اندفاع سليم في كيان الانسان نحو الرقي المنشود والتطور الذي نتحدث عنه. وبدونها لا يملك الانسان أي قاعدة صلبة يتخذ منها(ايديولوجية) صالحة، يحصن فيها منهاجه المرسوم للتطور والرقي، ولعلك تتنبه هنا الى ما يردده كثير من علماء الاقتصاد في بلادنا، عندما يحاولون تشخيص الامراض التي تصدنا عن سبل التنمية والتطور الاقتصادي، وهو قولهم: اننا نعاني من مشكلة الفراغ.. فراغ الفكر الاجتماعي العام(من الايديولوجية) التي لابد منها لتسيير عملية التنمية والتطور الاقتصادي.

ولا ريب أن هذا الكلام صحيح.

ولكن علينا ان نتساءل: ما معنى اننا نعاني من فراغ(ايديولوجي) تجاه حركة التنمية والتطور؟.. ثم كيف السبيل إلى التخلص من هذا الفراغ؟ .. والجواب على السؤال الاول، اننا نعيش في فقر بالنسبة للمعارف الذاتية التي ألمحت اليها، والتي لابد ان تنهض على قاعدة راسخة من ثقافة هذه الامة وما ارتضته لنفسها من المبادئ وما آمنت به من العقائد. فكان أن تمزقنا شيعاً وفئات بين(الايديولوجيات) المتعارضة المختلفة في العالم، فانعكس هذا التمزق على سعينا الداخلي من اجل التطور. فهذا معنى كوننا نعاني من فراغ ايديولوجي.

أما الجواب على السؤال الثاني، فهو ان السبيل محصور في ان نعمد فنتخذ من ثقافتنا نبراساً نعمق على ضوئه دراساتنا عن الانسان وخصائصه، وما يتصل به من الدراسات الاخرى التي اشرنا اليها باختصار.

فأنّا إن فعلنا ذلك، اقمنا منه حصناً لاصالتنا الانسانية، وعندئذ نتخلص من آفات التمزق لحاقاً بالفلسفات والنظريات المتطاحنة، وتتبلج امام بصائرنا سبل التطور السليم ومناهج التنمية الناجحة.

بعد هذه الخلاصة العجلى لاسباب الصلة القائمة بين المعارف الانسانية وعلوم التقنية بل بين المعارف الانسانية واي سعي نحو التخلص من التخلف وآفاته، يصبح من الضروري أن نعلم، أن سبيلنا إلى النهوض من وهدة التخلف يبدأ بتنمية هذه المعارف الانسانية بدءاً باللغة وحل مشكلاتها وترقية آدابها الاصلية وترسخ جذورها في الاذواق والنفوس، إلى التاريخ واستخراج صورة حقيقية(غير

مشوهة) عن علاقة هذه الأمة بماضيها، مع تقويم ذلك الماضي بدون تبديل ولا تغيير، إلى الدراسات الشرعية والقانونية وبسط موازين العدالة في المجتمع، إلى الأخلاق والتربية وتلمس جذورها الانسانية البعيدة. الى تلك الدراسات الهامة المتعلقة بنواميس الكون وقوانينه وما وراء هذه النواميس والقوانين.

ولا ريب اننا نعاني من نقص، واي نقص، في واجب التشبع بهذه العلوم، كماً وكيفاً. والقدر الذي ندرسه منها، نتعلمه بشكل مشوه قد انعكس عليه قدر كبير من مظاهر التمزق الذي حدثتك عنه، وانصبغ بالوان طارئة جعلت منه شيئاً غريباً عن ذاتنا واصالتنا[١٤][14]. إن علينا ان نتبصر هذه الحقيقة بدقة، لكي ندرك مدى الخطأ الفادح الذي يقع فيه أولئك الذين يتوهمون ان طريق العمل الثوري للنهضة والرقي انما هو الاندفاع المباشر الى التقنية والاسراع في وضع المناهج الخاصة بالتنمية والتصنيع، دون التفات الى قاعدة المعارف والعلوم الانسانية، بل على اساس من القفز المتعمد من فوقها.

وما قامت ثورة الانسانية في التاريخ البعيد ولا القريب، فنجحت في تحقيق آمالها، إلاّ لأنها اتجهت بالاهتمام الى جميع شروط النهضة العلمية والثقافية، فحفلت بها، واولتها كلها العناية والرعاية الكافية.

وما قامت ثورة تستهدف الرقي والاصلاح، فاخفقت . على الرغم من تهيؤ ظروف النجاح لها . إلاَّ لأنها (في أحسن أحوالها إخلاصاً) حصرت اهتمامها، في سذاجة وبساطة، في الاسباب اللماعة المباشرة للقفزات العلمية والصناعية. فجمدت امام هذه الأسباب دون أن تقتحمها، واكتفت بعبارات التغزل بها والإطراء لها، ثم انتهت كما بدأت، لم تستفد علماً ولم تحقق رقياً.

لقد قامت الثورة الفرنسية، وهي نموذج للثورات الناجحة في تاريخ العالم، هل تظن انها حصرت اهتمامها، بهذا الشكل الساذج، في معالم الاصلاح الضيقة، ووقفت عند حدودها المباشر؟...

إنها لم تنجح الا لأنها نظرت نظرة إصلاحية الى الحياة الفكرية والانسانية (انطلاقاً من القيم والمبادئ الخاصة بها) بكل جذورها وجوانبها وتاريخها وآدابها!...

وحسبك، لتصور هذا المعنى الذي اقول، أن تعلم أن هذه العبارات التالية، كانت من أبرز ما ركز عليه البيان الاول لمجلس الثورة الفرنسي:

---

[١٤][14] حسبك من هذا التمزق أن تتأمل حال كثير من كتابنا ومفكرينا، فتراهم يتحدثون عن مزق متنافرة من الآراء والتصورات يستحيل ان تجد فيما بينها أي تآلف أو انسجام.

يحدثك احدهم عما يسميه بتجديد الفكر العربي، وتنصت إليه في ارائه العجيبة التي يهدر بها، فلا ترى الفكر العربي الجديد فيما انتهت إليه محاولته إلا مخلاة حشيت بكل ما هو وافد الينا من عرف وفكر وفلسفة وحتى.. لغة وآداب !...

يحاول تجديد الفكر العربي . أي الاسلامي . ثم ينسف أقدس دعامة ينهض عليها وجود هذا الفكر العربي كله ألا وهو اتخاذ هذه الحياة الدنيا معبراً وجسراً الى السعادة في الحياة الآخرة. وهي الحقيقة التي جاء بها الرسل والانبياء وتنزلت بها الكتب من السماء يحدثك عن تجديد الفكر العربي، ثم يسخر من ذال الذي يقولك

وإنما الامم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

دون ان تهمس اليه ثقافته وفلسفته بان شيئاً من هذا التخلف لم يحق بنا إلاّ لأننا لم نعد نملك اساساً أخلاقياً ينهض عليه بنيان أي تفوق في حياتنا، وأن الاخلاق، والاخلاق وحدها هي التي تنقل الانسان من ساحة العلم الى العمل به ثم الى الوجه الاسلم في الاستفادة منه.

إنه لتمزق خطير بين مصانعة التيار الاسلامي الواعي الجديد، والارتماء في احضان العقلية الاجنبية الحديثة شرقية كانت أو غربية، يعاني منه كثير من رجال الفكر والبحث اليوم، ويعكس اضطراباً وأي اضطراب على الناشئة الذين يتطلعون الى رؤية صافية لحقائق الاشياء..

(ايها المواطنون: ليدفع كلاً منكم تسابق مقدس للقضاء على اللهجات ي جميع اقطار فرنسا، لأن تلك اللهجات رواسب من بقايا عهود الاقطاع والاستبداد)..[15]١٥وحسبك ايضاً أن تعلم بأن الآباء الروحيين لهذه الثورة، بل الذين قدحوا زنادها، انما هم رجال فكر وأصحاب اختصاص في المعارف الانسانية، على رأسهم العالم النفسي والاجتماعي جان جاك روسو، فهم الذين خططوا معالمها، وبثوا فيها روحها، واضاؤوا مشاعل النور في طريقها.

ولا ريب أن كثيراً من الناس، عندنا، يعجبون لهذا الامر، ولا يدركون له مسوغاً ولا تأويلا، ويدهشون من أن تعنى الثورة الفرنسة، في أول بيان لها، بشؤون، كأمر اللغة ولهجاتها، قد يرونا تافهة!..

ولكن الغريب كل الغرابة، لدى التأمل الفاحص، أن نرى هذه الامور تافهةً، وألا نوليها العناية، ولا نجعل من هذه العناية اساساً لتحقيق اهم مظاهر التقدم والاصلاح.

وأكد مرةً أخرى، القول بأننا لو تأملنا واقعنا الذي نعيش فيه، لرأينا الاهمال محيطاً بمعارفنا الانسانية واصولها الثقافية، ولرأينا ميادينها مسرحاً لفوضى الاعراض والاتجاهات.. ولرأينا انعكاسات الشقاق والاضطراب تنقدح منها الى حياتنا الاجتماعية دون توقف.

***

خامساً . التجزؤ بمختلف مستوياته:

واقصد بذلك التجزؤ الذي قد يبدأ في الاسرة الواحدة ثم يتعداها الى الحي الصغير، فالبلدة، فالاقليم، فالامة، العربية بمجموعها[16]١٦واصغر هذه الدوائر سبب للذي بعده، وهكذا***

ولست اهدف مما اقول الى زعم ان الخلاف ما ينبغي ان يوجد، وان الآراء المتباينة ما ينبغي أن تطرح. لا.. فإن أي عاقل من الناس لا يزعم ذلك؛ ولا يحيي الناس، طالما كانوا مجتمعين، الا في ظلال من مخض الآراء والافكار المتخالفة.

ولكن الاختلاف شيء، والتجزؤ شيء آخر.

---

[15]١٥ قارن بين هذا الكلام الذي يتضمنه أول بيان لمجلس الثورة الفرنسية، والدعوة القائمة عندنا اليوم، الى إحياء اللهجات العامية، بشكل مباشر آناً، وتحت ستار الدعوة الى تبسيط اللغة العربية آناً آخر. وهي دعوة لا نراها تهيج إلا في صفوف اولئك الذين انفسهم بالتقدم والتطور، ومحاربة التخلف وأسبابه !..

هذا، ولا يخفى على أي مثقف ان الافكار لا تستبين في الاذهان الا ضمن قالب من اللغة، حتى قبل ان يعبر عنها باللسان، ذلك لان الذهن لا يهجمها الا وهي مرتبة الاجزاء متساوقة الحلقات، ولا يمكن ان تترتب هكذا، الا ضمن شريط من اللغة والفاظها، يستقر على صفحة الذهن، ومن هنا كانت انعكاسات اللغة من اهم عوامل التفكير في حياة الانسان، ومن هنا ايضاً تدرك الحكمة الكبرى من تعليم الله آدم عليه الصلاة والسلام الاشياء بتعليمه اسماءها قبل كل شيء:(وعلّم آدم الأسماء كلها).

فالعلاقة اذاً مطردة . ي كلا جانبي الايجاب والسلب . بين لغة الامة ومدى تقدمها العلمي والحضاري. ومن أبرز النتائج المنطقية لهذه العلاقة أن الرجل العربي مثلاً لا يستطيع ان يفكر تفكيراً ذاتياً نابعاً من واقعه، وحياته التي يعيشها، ما دام يعاني من قر في فهم اللغة وتذوق آدابها.. اعني آدابها هي الخاصة بها والنابعة من طبيعتها.. لا تلك التي جيء بها من لغات اخرى، ثم الصقت بها الصاقاً، وحملت عليها كرهاً.

وانما يبدأ الاستعمار عمله دائماً بتمهيد من حرب اللغة وتمزيق آدابها، عن طريق رسله ومرسليه، حتى اذا ماعت اللغة وتصدعت اركانها، وتفتحت الثغرات في آدابها، وبدأت تثاقل على السنة الكثير من اصحابها . راح يمد اليها جسراً ينقل عليه سائر افكاره وتوجيهاته الهدامة، واذا هي تاخذ مكانها في الرؤوس ثم النفوس دون كبير عناء.

[16]١٦ كان الاصل ان نقول: الامة الاسلامية، ولكنا نقصد في مجال ما نحن بصدده، هذا الجزء الصغير من الامة الاسلامية الكبرى، فلابد من تسميته باسم مميز له وهو: الامة العربية.

التجزؤ هو النتيجة السيئة للاختلاف. اما الاختلاف بحد ذاته فيمكن أن يكون سبيلاً الى تمحيص مفيد ولقاء ثمر. ويمكن أن يصبح سبباً في تجزؤ قتال. والامة الواعية هي التي تعرف كيف تتخذ من خلافات جماعاتها سلّماً الى تمحيص الفكر وسبيلاً للاتفاق اخيراً على ما هو الأصلح والاكمل، والاكثر اتفاقاً مع المبادئ التي تشكل قاسماً مشتركاً يخضع له الجميع. أما الأمة المتخلفة فهي التي تترك الخلافات الناشئة فيها لتتحول الى بركان دمار وعامل تجزؤ و اضمحلال.

فهذا التجزؤ، من أهم الاسباب التي تكرس موجبات التخلف بشتى صوره وانواعه. وهو تجزؤ يعيش في حياتنا على شتى المستويات، بدءاً من اضيقها وهو الاسرة . في كثير من الاحيان . الى اوسعها وهو الامة العربية التي هي جزء اصيل من الامة الاسلامية الكبرى. وعوامل هذا التجزؤ عديدة ورهيبة.. لا مجال في هذا الصدد للوقوف عندها باي بيان وتفصيل.

ولكني أقول بكلمة موجزة: إن من اهم اسباب التجزؤ الذي هو النتيجة السيئة للخلافات، أن تفتقر الامة الى قاعدة من المبادئ والمعتقدات التي تشكل القاسم المشترك الذي يؤمن او يخضع له الجميع.

ذلك لأن فقدان هذه القاعدة التي هي كالميزان يحتكم اليه الطرفان، يجعل المتخالفين ينتثرون وراء افكارهم في سبل ومتاهات متفرقة دون الارتباط بجذور جامعة، ولا نهايات موحِّدة.

على حين ان وجوداً حقيقياً لهذه القاعدة يضمن حصر الخلافات في دائرة البحث المفيد، ولا يدعها تصدع شيئاً من بنيان الامة ووحدتها. بل ان الوجود الحقيقي[١٧][17]لهذا القاسم المشترك، لابد ان يصهر تلك الآراء المتخالفة، حتى يقضي على آفاتها ونذر الشقاق فيها، بحيث لا يبقى منها الا ذيول تغني الفكر وتشجع على البحث، وتمد العقل بحرية النظر.

وهذه الحقيقة تلفت نظرنا الى الضرورة الماسة لتغذية المسلمات الاساسية التي يجب ان تشكل القاسم المشترك في حياتنا الفكرية العامة، لكي تكون اليها الفئة والاحتكام كلما اشتط بنا نقاش او تمادى بيننا خلاف.

ولكن اين هي هذه المسلمات؟.

حتى هذه المسلمات التي لا بد ان تتوافر لدينا، قاعدة انطلاق، وميزان تحكيم، نختصم حولها، ونتفرق تجاهها. فإلى أي شيء اذاً نحتكم اختلفنا وباي حبل نستمسك اذا تجزأنا؟!..

إذاً فالتجزؤ قائم، لان اهم اسبابه قائم ماثل للعيان.

وواضح ان هذا التجزؤ يبعدنا عن نيل ثرواتنا والاستفادة منها، وهي موجودة متوافرة. ويحرمنا من عطاء اراضينا وهي واسعة وكريمة. ويجعل العدو يستهين بنا ونحن كثر، ويجرأ علينا ونحن أشداء!..

والحق الذي لا ريب فيه أن عواطف كثير تهيج، وجهوداً محمودة تبذل، في سبيل القضاء على التجزؤ واقامة بنيان وحدة شاملة، الا ان شيئاً منهما لن ياتي، فيما يبدو، بطائل.

ذلك لأن القضاء على التجزؤ انما يكون بالقضاء على اسبابه. وأهم اسبابه هو افتقار الأمة إلى مسلّمات مقدسة تنطلق منها.

لا بد إذاً من بحث موضوعي جاد عن هذه المسلمات، ولا بد العثور عليها من تغذيتها ورعايتها على مستوى الاسرة والبلدة والاقليم. وعندئذ تصبح المرحلة الاخيرة اسهل المراحل كلها، بل تكاد تكون آلية بعد الانتهاء من المراحل السابقة التي هي اساس لها.

إن إقامة الوحدة ليست أكثر من صنع دائرة، ولا بد لذلك من وضع محور اولاً.

إذاً ضع المحور أولاً، ثم انظر كيف يمتد الخط من حوله ليكون دائرة محكمة بايسر جهد واقرب سبيل.

وسبحان من علمنا كيف نضع المحور اولاً. اذا اردنا أن نستجيب لأمره فلا نتفرق. وسبحان من أنبأنا بأن المحور الجاذب، لن يكون جاذباً الا اذا كان احتكاماً الى الله وسلطانه فقال:(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا).

---

[١٧][17] اقصد بالوجود الحقيقي، الوجود القائم على الدراسة والعلم، لا القائم على مجرد مواصفات تقليدية.

ومع هذا فإنك لتجد أناساً لا يعلمون الى اليوم هذا القانون الطبيعي، يثورون ويهيجون، بحثاً عن الوحدة، في الوقت الذي يزرعون فيه الارض التي تحت اقدامهم بمزيد من اسباب التجزؤ والتمزق!.. يبددون الطاقات التي تعيش تحت ابصارهم، ثم يبكون عليها ويبحثون عنها على طول الصحاري والقفار الفاصلة بين الاقطار.

***

هذه الاسباب الخمسة، هي وحدها ممكن داء التخلف وضعف الانتاج ومقومات التطور في بلادنا.

وإنما أأكد هذا الحصر، بعد ملاحظة الاطار الطبيعي الذي لابدَ ان يوضع فيه هذا الكلام كله، الا وهو ضرورة وجود الاخلاص في النفوس، والصدق في القصد الى خدمة الامة والسعي الى تخليصها من براثن التخلف وتحقيق اسباب التقدم لها.

فلا جرم أن هذه الأسباب التي عددناها للتخلف، مهما قضي عليها. لن تتحقق أي ثمرة مفيدة من وراء ذلك.

إذا كانت المصالح الشخصية ونحوها هي الدافع الخفي الى كل سعي أو نشاط.

ومن فضول القول أن ننفق أي وقت على الحديث عن هذا الاطار الطبيعي الذي لا بدّ أن يكون محيطاً بأي عمل من الاعمال مهما كان نوعه. ويغنينا عن ذلك أن نلفت الى أهميته عقل كل عاقل، وفكر كل ذي فكر.

ثم إنك أن تأملت، رأيت هذا الأسباب الخمسة متداخلة، يؤثر بعضها في تقوية بعض.

ومع ذلك، فإنها جميعاً نتائج فرعية لسبب رئيسي خطير، هو سبب الاسباب كلها، ألا وهو انصراف المسلمين عن اسلامهم، ونقضهم للبيعة التي كانوا بايعوها ربهم.

هذه حقيقة ثابتة لا جدوى في انكارها، بل لا سبيل لانكارها، عند من آمن بالله إلهآ واحداً متصفاً بكل صفات الربوبية والكمال.

غير أنها حقبة خيالية، لا جدوى من الحمل على اليقين بها عند من لم يؤمن بعد بهذا الإله. ونقاش ما بين هذين الفريقين، لا ينتهي الى شيء في هذا المجال.

بيد انني انما أخاطب في هذا البحث، الموقنين بوجود الله، أو المتظاهرين بهذا اليقين على اقل تقدير.

ولهذا الفريق من الناس أقول:

إن عمارة هذه الدنيا امانة، يشرف الله بها عباده المسلمين طالما كانوا مسلمين فعلاً.. فإذا انحرفوا، استلب الامامة منهم واستودعها عند غيرهم. وربما كانوا شراً منهم، ولا ضير.. فإن الله لا يوقف عمارة الارض وحركة الحياة من اجل عيون الذين ارتدوا على أعقابهم، وانحرفوا عن منهج التشريف والتكريم.. لا بد أن تظل الحياة مستمرة، وقانونها نافذاً ، إن لم يكن زمامها بيد هؤلاء، كان بيد آخرين، الى ان يرث الله الارض ومن عليها.

ومع ذلك، فإن انتقال ازمة القيادة من المسلمين الى غيرهم، ليس في حقيقته نصراً لأولئك الآخرين. ولكنه تسليط.. يسلطهم الله تعالى على هؤلاء الذين خانوا الامانة ونبذوا العهد، عسى ذلك ان ينبههم ويعيدهم الى الاستقامة والرشد. أي فهم في حقيقة هذا القانون الإلهي ليسوا اكثر من سياط تجردها الاقدار الالهية على ظهور أولئك الذين كان لا بد أن يتلقوا التربية والتأديب من الله عز وجل، لما قد فرط منهم.

وانظر، كم هو واضح هذا المعنى: معنى التسليط، الذي لا شأن له في الحقيقة بالإعزاز أو النصر الذاتي، في قوله عز وجل، عن نبي اسرائيل، تنبيهاً لنا الى هذا لا قانون الالهي الخطير:

(وقَضَينا إلى تني إسرائيلَ في الكتاب لتُفسِدُنَّ في الأرض مرتين ولتَعلُنَّ عُلواً كبيراً. فإذا جاء وعدُ اولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً).. الاسراء: ٣ و٤.

أما هذا القانون الإلهي الذي أحدثك عنه فإليك هذه النصوص القاطعة بشأنه في بيان الفاطر الحكيم:

. (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) .. النور: ٥٥.

. (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودُن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين. ولنسكننكم الأرض من بعدهم، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) إبراهيم: ١٣و١٤.

. (إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم، ولا تضروه شيئاً، والله على كل شيءٍ قدير) التوبة:٣٩.

عَود على بدء

أما الآن فلنعد إلى الصورة التي انطلقنا منها إلى هذا البحث.

صورة من يطيب له ألا يعالج المشكلات، مهما عظمت وتعقدت، إلا وهو متكئ في مجلسه، الارائكي الحالم؛ يلف رجلاً على أخرى ليتحدث عن سر التخلف الذي تعانيه هذه الأمة، فلا يجد السر إلا في إسلام المسلمين وتشبثهم بما قد آمنوا به من المبادئ والأحكام والقيم.

فذلك هو السبب الأعظم في تعثر سبل التطور والرقي امامنا!...

أليس هذا ظلماً للحقيقة؟...

أليس من أكبر الظلم . وقد تبينتَ مما ذكرناه أهم أسباب التخلف الذي نعانيه . أن يعرض هؤلاء الناس عن هذه الأسباب، ويتجاهلوا وجودها فضلاً عن خطورتها، لينحطوا باللائمة على ما لا صلة له بالامر من قريب ولا بعيد؟...

ولنفرض ان بعضاً من هؤلاء يعانون من عقد نفسية تجاه الإسلام أو شيء من احكامه، أفيكون ذلك مسوغاً لتحميله مسؤولية تخلف المسلمين؟ ومتى كانت الرؤية النفسية بمثابة الموازين المنطقية والاحكام العلمية؟..

خير من هذه الجناية التي لا شفيع لها، أن يحدثنا هؤلاء الاخوة بصراحة، وان يقولوا ما الذي لا يعجبهم من الاسلام؟.

هل هو أساسه ومعينه الاول، وهو الايمان بوجود خالق هذا الكون ومنظمه؟.. إذاً نفتح حواراً علمياً موضوعياً محصوراً في نطاق البحث حول وجود الله عز وجل.

أم هل هو الايمان بالنبوات والرسائل التي بلغتنا عن الله عز وجل؟ .. وإذاً فلنفتح نقاشاً موضوعياً يكون محوره: هل من المعقول ان نؤمن بوجود إله مدبر لهذا الكون، يدبر شؤون الحياة والمكونات كلها طبق نظام رائع دقيق ثم يعرض عن أخطر مخلوق بينها وهو: الانسان، فيتركه يعثو ويعبث كما يشاء، تتماوج في مملكته عوامل الفوضى والظلم والاضطراب. دون أن يرفده بمعلومات ترشده، ومبادئ تنظم حياته، وبيان يوضح علاقته ومسؤوليته تجاه هذا الإله الخالق؟!..

هل رأيت طفلاً ألف في مدرسته مسرحية من فصل واحد، شاهد النظارة فيه مناظر مبتورة لم تتبن نتائجها ولا دوافعها، ولم يستظهروا الحكمة منها، حتى إذا اسدل الستار عليهن قيل لهم: لقد انتهت المسرحية فانصرفوا مشكورين؟.

وهذا طفل، وذلك إله. وهذا مخلوق، وذلك خالق.

اليس أيسر على العقل ان يعرض عن الحقيقة، ويفرض الا وجود للإله اصلاً، من أن نؤمن بوجوده، ثم لا يستشعر بأي مسؤولية تجاهه على الرغم من انه عبده، ولا يرى انه مأخوذ ومكلف باي منهج ونظام، على الرغم من أن كل ما حوله من الجوامد والحيوانات مأخوذة بقانون ونظام؟!...

أم هل هو الحصيلة التي تجمعت خلال الاحقاب في مخزن تاريخنا الاسلامي، فاصبحت تسمى تراثاً، وفيه الكثير مما يرفضه الفكر الحديث أو تأباه النظرة العلمية، أو المقاييس الانسانية؟..

ولكن من قال إن علينا أن نعمد على كل ما خلفته القرون المتطاولة من اعراف وتصرفات وافكار ورعونات فنصبغه بصبغة الاسلام، ثم نجعل كل ذلك وزراً في عنقه؟.

بل من ذا الذي قال: إن كل ما اصبح اسمه عندنا(تراثاً)أصبحت له قداسة الدين وحرمة العقيدة وحقوق البر في اعناقنا؟..

تاريخ طويل مضى، واحداث مختلفة تعاقبت، وعقليات كثيرة ظهرت وتحدثت، طبيعي أن يترك ذلك كله تحت مظلة الحياة الاسلامية شذوذات وانحرافات وأفكاراً جانحة تجمعت من هنا وهناك.. افيكون كل ذلك أو شيء من ذلك، وبالاً على الاسلام الذي هو الدين الحق وعذراً لنا اليوم، في التنكر له وفي لصق مظاهر الضعف والتخلف به؟.

إن الاسلام يقرر أن الانسان ليس معصوماً ما لم يكن رسولاً او نبياً، وأن الناس كلهم خطاؤون، وخير الخطائين التوابون، وأنه ما منا إلا من ردَّ وردَّ عليه..

ومن ثمة فلا تنهض الحجة على الناس الا بنص من كلام الله أو حديث من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم. أو ما كان في قوة شيء منهما كقياس أو إجماع.

وانسجاماً مع هذا الذي يقرره الاسلام، فإنا نرى ان في تاريخ الاسلام والمسلمين، ما يجب ان نعده قدوة صالحة نأتي به ويحذو حذوه، فهذا هو التراث النافع الذي نحييه وندعو إليه، وفيه ما يجب الاعتبار به والحذر من الوقوع في نظيره. وهذا هو التراث الذي لا نشير إليه إلا على وجه المعرفة وأخذ العبرة، ثم إنا نعرض عنه ونتركه دفيناً في مقبرة التاريخ.

ورائدنا في هذا التصنيف والتفريق، هو التعاليم الاسلامية ذاتها، كما أوضحت.

وهكذا فإننا نذهب في التحرر عن الماضي مذهباً ابلغ من ذلك الذي يذهب إليه كثير من الذين ينادون بالتحرر ويلصقون ظاهرة التخلف باسلام المسلمين وتدينهم. ذلك لأن الكثير منهم يمجدون هذا الذي يسمونه(تراث الآباء والاجداد)، ويتعاملون بهذه الكلمة تعبيراً عن مجموعة من المبادئ والقيم، يضعونها من حياتهم في إطار الرعاية والتقديس كيفما كانت.

ولكنا نخالفهم في هذا التقديس، وليكن هذا الذي يسمونه(تراث الآباء والأجداد) أياً كان: ديناً أو أعرافاً أو قيماً، فإننا ننكر أن يكون لشيء من ذلك أي قداسة. او حرمة من اجل انه تراث انحدر إلينا من الآباء والاجداد.

بل إننا على يقين بان كثيراً مما ورثناه عنهم جدير به ان يمزق ويدفن تحت مواطئ الاقدام.

ولا تزال تظن في اذني كلمة زعيم كان يردد هذه الكلمة: (تراث الآباء والاجداد) كلما اراد ان ينوه او يشيد بمعلمة من معالم تاريخنا او مبدأ من مبادئ اسلامنا.

فكنت، ولا أزال، اضيق ذرعاً بهذه الكلمة، وكنت أقول: ما أقرب أن تكون هذه الكلمة في الحقيقة تنفيراً عن الإسلام واقيم التي تعتز بها جميعاً. فلئن كان سرّ ذلك كله أنه مجرد تراث انحدر إلينا من الآباء والأجداد، فأنا أول من يعلن استغناءه عن هذا التراث كله.

***

والخلاصة أننا ننكر تقويم الإسلام بواقع اهله وتاريخه، علماً بأننا الآن لسنا بصدد بيان اخطاء هذا التاريخ ونسبتها إلى فضائله ومحاسنه.

ومن ثم فإننا ننكر أن ينتقد الإسلام على هذا الاساس، ثم يلصق به من جراء ذلك ما هو منه بريء.

ثم إننا لا نريد من هؤلاء الإخوة أن يعقدوا صلة عاطفية مع السلام، ويكيلوا له . من هذا المنطلق . عبارات الغزل أو الاعجاب. فالإسلام ليس بحاجة إلى من يتعامل معه على هذا الأساس.

وإنما نريد منهم أن يفهموه: يفهموه في مصادره الاصلية، ومنابعه الاعتقادية، وان يتساءلوا عن مدى صدق فرضية تقول: بان القرآن كلام بشر، وبأن محمداً صلى الله عليه وسلم، لم يكن . كما قال . ينقل هذا الكلام عن ربه.

على أن يكون سبيلهم إلى هذا الفهم والتساؤل منطقاً حراً، صافياً عن شوائب العقد، والعصبية، وردود الفعل، ووحي الاغراض والمصالح.

فإنهم إن فعلوا ذلك عرفوه على حقيقته، وفرقوا بينه وبين تاريخ أجله، وأدركوا أنه منهاج رب العلمين لعباده، ألزمهم به تحقيقاً لسعادتهم في معاشهم الدنيوي، ومآلهم الاخروي، وأن ذلك المآل الأخروي. قادم لا ريب فيه وأنه أحرى بالرعاية والاهتمام من هذا العاجل الدنيوي.

وعندئذ يدركون أن الشرع الذي جعله الله سلماً للرقي، لا يمكن أن ينقلب، فيصبح دركاً أو منحدراً للتخلف.

وستذكر ما أقول لك وتؤمن به، إن لم يكن في الغد القريب، ففي اليوم الآتي الذي لا ريب فيه.

يومئذ يتذكر الإنسان.. ولكن .. أنَّى له الذكرى.

***